

تاريخ

أوربا الحديث

د. عبد اللطيف الصباغ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

مقدمة:

تمر الأمم عبر تاريخها بدورات تتأرجح بين التقدم والتخلف، وقد مرت الأمم الأوربية بعصور مظلمة وقت نهضة المسلمين، ثم استفاقت من غفوتها في مطلع العصور الحديثة، لتأخذ بأسباب التقدم والتطور، لتصبح في مقدمة دول العالم بفضل نهضتها الصناعية. وأوربا لم تشكل مطلقاً أمة واحدة عبر تاريخها، فلا تجمعه وحدة اللغة أو الدين أو الأصول العرقية، وإن نجحت الحضارتان الإغريقية والرومانية التقريب بين هذه الأمم ودمجها، لكن ظلت الأمم الأوربية تحكمها المصلحة الشخصية لكل إقليم حتى تبلورت شخصيته وقوميته فيما بعد، وظلت أمماً متناحرة على مر العصور حتى منتصف القرن العشرين.

ويعد تاريخ أوربا الحديث مفتاحا لتاريخ العالم الحديث، لذا يحاول البعض تسمية تاريخ أوربا الحديث بتاريخ العالم على اعتبار أنه يلعب دور الفاعل، فلا يمكن معالجة تاريخ أي منطقة من مناطق العالم في هذه الحقبة بمعزل عن تاريخ أوربا، وهو رأي مردود عليه فحتى تاريخ الأمم التي تلعب دور المفعول به لها خصوصيتها وحضارتها الخاصة بها، فتاريخ الأمريكتين أو الشرق الأقصى أو حتى تاريخ الدول داخل هذه الكيانات الكبرى لكل منها خصوصيتها وزخمها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وفي دراستنا لتاريخ أوربا الحديث نركز على المعالم الأساسية لتاريخ القارة البيضاء ولا نستطيع تغطية أنشطة دولها فيما وراء البحار لاسيما إنجلترا وفرنسا، اللهم إلا ما وقع بين هذه الدول من صراع داخل القارة أو خارجها وانعكس على موازين القوى داخل القارة.؟

وسنلاحظ من خلال دراسة تاريخ أوربا أن الكيانات الأوربية حاولت الحفاظ على وجودها بوسائل شتى، فبالإضافة إلى التسلح حاولت الكيانات الصغيرة التحالف ضد الدول الكبرى التي تحاول الإمساك بلواء الزعامة داخل القارة البيضاء، فيما يعرف بتوازن القوى، فتحالفت الدول الأوربية في القرن السادس عشر بزعامة فرنسا وإنجلترا لمواجهة أسبانيا التي امتلأت خزائنها من خيرات العالم الجديد فحاولت السيطرة على أسواق أوربا، وتكرر الأمر نفسه مع فرنسا النابليونية في مطلع القرن التاسع عشر.

وقد ساد أوربا نوعين من الصراع خلال العصر الحديث الأول صراع الأسر الحاكمة والثاني صراع المستعمرات ومناطق النفوذ، وتخلله صراع أيديولوجي في بعض الفترات تمثل في صراع النظم الملكية والجمهورية في أعقاب الثورة الفرنسية وانتهى بالحروب النابليونية. ولّد الصراع بين دول أوربا بأنماطه الثلاث زخما سياسيا وصراعا عسكريا كبيرا شكل فصول هذه الدراسة، وقد آثرنا تقسيمه زمنيا، لكننا في الوقت نفسه بلورناه في هيئة قضايا وإشكاليات.

وأخيرا أتمنى أن أكون قد وفقت في عرض تاريخ أوربا الحديث بشكل مبسط ينال رضا أبنائي طلاب مرحلة الليسانس والقارئ بصفة عامة، وأن أكون قد وفقت في استخلاص الدروس والعبر من دراسة تاريخ هذه الأمة في مرحلة مهمة من مراحلها التاريخية.

تمهيد مدخل إلى

تاريخ أوربا الحديث

- سمات أوربا في العصور الوسطى

- أدوار التاريخ الأوربي الحديث

من المعروف أن تاريخ الأمم عبارة عن حلقات متصلة لكل منها سمات خاصة بها، تمثل قواعد أساسية لهذا العصر أو ذاك، فإن أُذن لهذه الأمة أن تنتقل إلى عصر آخر ارتجت قواعد العصر السابق وتزلزلت لتأتي قواعد جديدة للعصر الجديد تمثل سماته وقواعده الأساسية، وعلى ذلك فحلقات التاريخ لأمة من الأمم لا تنتهي ولا تبدأ بشكل مفاجئ إنما تستغرق وقتا طويلا من الزمن. ولكي نتبين أهمية ما حققته أوربا من إنجازات بانتقالها من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة نعرض بشكل سريع لسمات أوربا في العصور الوسطى.

- **سمات أوربا في العصور الوسطى**

ساد أوربا في العصور الوسطى عدة سمات قيدت حريتها ومنعتها من التقدم والازدهار تمثلت هذه السمات في مثلث مثلت أحد أضلاعه السلطة الدينية، ومثل الضلع الثاني النظام الاجتماعي السائد في أوربا آنذاك ألا وهو الإقطاع، أما الضلع الثالث فتمثل في التخلف العلمي الناتج عن تحالف الضلعين السابقين الإقطاع والكنيسة للتحكم في المجتمع وتقسيم خيراته فيما بينهما.

- تسلط الكنيسة

ساد أوربا في العصور الوسطى تسلط من جانب الكنيسة في المجتمع والسيطرة عليه وترهيب الخارجين عن تعاليم الكنيسة بعذاب الله، وانتشرت عبادة الأيقونات متمثلة في صور القديسين من العصور السابقة، وتصدت الكنيسة للأفكار العلمية الجديدة الوافدة من العالم الإسلامي التي تعطي للعقل حرية التفكير والإبداع، فحكمت على العلماء بالحرمان وأهدرت دم بعضهم وأحرقت كتب البعض الآخر، ومن المعروف أن الدين المسيحي لاهوت يحكم العلاقة

بين الإنسان وربه، وهو دين تعبدي ارتكز في شرائعه الدنيوية على التعاليم الواردة في العهد القديم، فحادت الكنيسة عن طريقها عندما تحكمت بغير علم في أمور العلم والدنيا، لذا تبلورت حركة علمانية في أواخر العصور الوسطى للتخلص من ربقة الكنيسة بشكل كامل والتحاكم إلى سلطان العقل والعلم فقط

- الإقطاع

اعتمدت أوربا في العصور الوسطى – شأنها في ذلك شأن أغلب دول العالم آنذاك – على الزراعة والرعي مع قليل من التجارة، ومثل هذا المجتمع إذا تركزت ملكية الأرض في يد مجموعة صغيرة من المجتمع يسوده نظام اجتماعي اقتصادي إقطاعي يقوم على تركز رأس المال في يد طبقة صغيرة هم السادة ومعظم السكان من العبيد يعملون لدى السادة، ومثل هذا المجتمع بمكوناته تلك لا يمكن أن يتغير، فلا السادة يرضون بتغيير هذا الوضع ولا العبيد لديهم القدرة على التغيير.

- التخلف العلمي

العلم وليد الحرية وبيئة القهر والكبت والعبودية لا يمكن أن تكون بيئة صالحة لظهور العلم وتطوره، فالسادة يعيشون في رغد من العيش لا يهتمون بعلم ولا علماء، والعبيد لا هم لهم إلا البحث عن لقمة العيش، فهم يعملون لقاء لقمة العيش، فإذا أضفنا إلى ذلك سلطان الكنيسة غير الراغبة في التطور والعلم أدركنا حجم المأساة، لاسيما أن سلطان العلماء سيقلل من سلطان الكنيسة ونفوذها على العامة.

- **أدوار التاريخ الأوربي الحديث:**

في أدوار التاريخ الأوربي نقدم خريطة استرشادية للأدوار التي مر بها التاريخ الأوربي الحديث، ولن ندخل في التفاصيل، لأن هذه التفاصيل مكانها في فصول الدراسة، وهي خريطة اجتهادية تحكمها أسس عامة بصرف النظر عن التفاصيل الصغيرة التي قد تتعارض مع العناوين الكبرى لهذه المراحل، وفيما يلي أدوار هذا التاريخ:

١. عصر النهضة (ويمتد من القرن ١٣– ١٥م)

وشهد طفرة في مختلف جوانب الحياة، أخرجت أوربا من الظلمات إلى النور، بدأت بالنشاط التجاري عبر البحر المتوسط، وجهود الفاتحين المسلمين في الأندلس وجنوب إيطاليا، فتنامي النشاط التجاري الأوربي أدى إلى تحقيق مكاسب اقتصادية لدى فئة من السكان أصبحت تملك لقمة عيشها ومن ثم أصبحت تملك قرارها وكلمتها، ومثل هذه الفئة هي القادرة على التغيير، كما لجأ بعض من أبناء أوربا إلى الأندلس والجزر التي سيطر عليها المسلمون في البحر المتوسط، لينهلوا من علم المسلمين. كل ذلك أدى إلى حركة نهضوية كبرى في أوربا زلزلت عرش المجتمع الإقطاعي والكنسي في أوربا وأذن بنقل القارة البيضاء إلى عصور النور.

٢. عصر الدولة الحديثة (القرن ١٦م)

شهد القرن السادس عشر في أوربا حركتين من أكبر الحركات التي شهدها تاريخ العالم الحديث هما حركة الكشوف الجغرافية وحركة الإصلاح الديني بقيادة مارتن لوثر، وما نتج عنهما من انفتاح أوربي على العالم وتحقيق مكاسب ووقوع صراعات وحروب داخلية وخارجية.

٣. عصر الملكيات الطلقة (القرن ١٧م)

استقرت في أوربا في القرن السابع عشر ملكيات مطلقة، في مقدمتها أسرة البربون في فرنسا والهابسبورج في ألمانيا، وقد استقرت هذه الملكيات مع ظهور الدولة القومية في أوربا فكان الولاء للوطن والملك سمة من سمات هذه الفترة، ومن أهم مشاهد هذا القرن حرب الثلاثين عاماً.

٤. عصر الملكيات المستبدة المستنيرة (القرن ١٨)

في القرن الثامن عشر تطورت الملكيات من الاستبداد المطلق إلى اعتبار نفسها خادمة للشعب، في روسيا وبروسيا والنمسا وغيرها من دول أوربا، فغدا يطلق عليها الملكيات المستبدة المستنيرة.

٥. عصر الحريات (القرن ١٩)

ويبدأ بعصر الثورة الفرنسية وإعلان الجمهورية في فرنسا والقضاء على الملكية، وما ترتب عليها من صراع أيديولوجي بين النظم الحاكمة في أوربا إلي لم يقف عند حد الخلاف السياسي وإنما تطور إلى حروب وصراعات ومؤتمرات، ساهمت في تشكيل الخريطة السياسية الأوربية، وهذا لا يعني أن الخريطة السياسية الأوربية قد وصلت إلى صورتها الأساسية آنذاك، فالخريطة السياسية للأمم كائن حي يتطور بتطور الزمن وستظل تتطور وتتغير ما بقيت الحياة.

الفصل الأول

عصر النهضة الأوربية

يقصد بعصر النهضة عصر إحياء العلوم والآداب في أوربا Renaissance، بعد أن ظهرت الطبقة البرجوازية وخفت قبضة الكنيسة على العلماء، وتوفر لهذه النهضة مجموعة من العلماء أخلصوا في سبيلها، وقد تركزت النهضة

الأوربية في إيطاليا قبل غيرها من الدول الأوربية، ثم انتشرت في باقي القارة البيضاء، وفيما يلي نتعرض لأسباب هذه النهضة ومظاهرها وعلمائها.

أولاً: عوامل قيام النهضة في أوربا

١- التأثيرات الإسلامية:

يربط البعض بين العصور الحديثة والتقدم ويعتبرون أن التخلف سمة من سمات العصور الوسطى، وهي رؤية قد تصدق على أوربا، لكن عكسها تماما ينطبق على العالم الإسلامي، فسمة العالم الإسلامي في العصور الإسلامية التقدم، كما تقدم المصريون واليونانيون والرومان واليمنيون وغيرهم في العصور القديمة، فإذا كان الأوربيون والأمريكان والسوفيت قد تقدموا في العصر الحديث، فإن الحضارة الإسلامية كانت ملئ السمع والبصر في العصور الوسطى.

ومن المعروف بداهة أن الميراث الإنساني الحضاري يقتضي أن يستفيد الإنسان ممن سبقوه في هذا المجال، فإذا كانت الحضارة الإسلامية قد استفادت من الحضارات القديمة التي سبقتها، فإنها أعطت بسخاء للحضارة الأوربية فكانت حجر الزاوية في التقدم الأوربي، وقد انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عبر عدة معابر هي:

-تجار جنوة والبندقية

يعد النشاط التجاري من أهم وسائل نقل المؤثرات الحضارية بين إقليم وآخر، وقد انتقل الإسلام عن طريق التجارة إلى وسط وشرق آسيا، فلم نسمع تاريخيا عن أي حملات عسكرية فيما وراء الهند، وعلى ذلك فانتشار الإسلام في إندونيسيا وماليزيا والفلبين والصين جاء نتاجا للنشاط التجاري بين تلك المناطق والعالم الإسلامي. انتقلت المؤثرات الحضارية من العالم الإسلامي إلى أوربا عن طريق تجار جنوة والبندقية.

وقد مارس البنادقة والجنويون التجارة عبر البحر المتوسط منذ أقدم العصور، فنقلوا البهارات ومتاجر الهند الحارة إلى أوربا عبر البحر المتوسط من مواني بلاد الشام ومصر، وكانت متاجر الهند تأتي إلى تلك المواني عبر ثلاث طرق أولها عبر المحيط الهندي وبحر العرب على اليمن ثم تنقل برا مرورا بمكة والمدينة إلى بلاد الشام فيما عرف تاريخيا برحلتي الشتاء والصيف، وثانيهما عبر المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر إلى القلزم (السويس) ثم إلى القاهرة وعبر النيل إلى مواني مصر الشمالية دمياط ورشيد والإسكندرية، وثالث هذه الطرق عبر المحيط الهندي والخليج العربي ثم برا عبر العراق وسوريا إلى مواني بلاد الشام. وتنتقل مع التجارة المؤثرات الحضارية إلى أوربا.

- الأندلس

نجح المسلمون في عبور المضيق الفاصل بين أوربا وأفريقيا ونشروا الإسلام في شبه جزيرة أيبيريا، وظل الإسلام بها ما يقرب من ثمانية قرون، شهدت شبه جزيرة أيبيريا خلالها آيات من الحضارة الإسلامية، فانتقلت هذه المؤثرات عبر جبال البرانس إلى فرنسا عن طريق تلامذة العلم الذين تعلموا على يد علماء المسلمين في أيبيريا.

-صقلية وجنوب إيطاليا

تمثل جزيرة صقلية مع جنوب إيطاليا ثاني أضيق مناطق البحر المتوسط بين القارتين أوربا وأفريقيا بعد مضيق جبل طارق، وبنجاح المسلمين في فتح جزيرة صقلية التي بقيت في يد المسلمين حوالي مائتي عام ومنها دخل المسلمون جنوب إيطاليا فمهدوا السبيل لنقل المؤثرات الحضارية الإسلامية عبر جنوب إيطاليا إلى باقي أوربا

-الحروب الصليبية

امتدت الحروب الصليبية في بلاد الشرق الأدنى الإسلامي حوالي قرنين من الزمان، عاش خلالها الأوربيون في البلدان الإسلامية، فعاينوا مظاهر الحضارة الإسلامية سواء في العمارة المدنية أو العسكرية أو أدوات القتال وفنونه، فنقلوا عنهم بعض هذه المظاهر وتأثروا بها، لكنه جاء تأثيرا محدودا في ميادينه نظرا للطبيعة العسكرية التي تفرضها مثل هذه الظروف الحربية.

٢- إخلاص أعلام النهضة:

من أهم عوامل نجاح أي فكرة إخلاص القائمين عليها بصرف النظر عن صحة مبادئ الفكرة من عدمه، فالشيوعية في روسيا والنازية في ألمانيا نجحت بإخلاص القائمين عليها وإنكارهم لذاتهم، والملاحظ لأعلام النهضة في أوربا يجدهم أنهم أخلصوا العمل دون انتظار المقابل المادي حبا في العمل، بل إن كثيرا منهم أوقف كل ما يملك على الحركة الثقافية والفنية.

٣- تركز كثير من أعلام النهضة في مكان واحد (إيطاليا)

من العوامل التي أدت إلى نجاح النهضة تركز علمائها في إيطاليا، التي مثلت نقطة جذب للعلماء المسيحيين من كافة أنحاء أوربا، نظرا لاهتمام الأمراء فيها بالعلم والعلماء فأغدقوا عليهم العطايا، كما هاجر إليها علماء القسطنطينية المسيحيون بعد فتح المسلمين لها، وقد أدت الطبيعة الفقيرة لإيطاليا وطول سواحلها على البحر المتوسط أدت إلى لجوء أهلها إلى البحر طلبا للرزق سواء من الصيد أو التجارة، الأمر الذي خفف من قبضة الإقطاع في تلك البقاع، أضف إلى ذلك الطبيعة الجبلية المحيطة بمدن إيطاليا التي جعلت منها بوتقة صهرت العلماء في كافة التخصصات وسمحت بمزيد من تلاقي الأفكار بين هؤلاء العلماء وأسرعت بتطور العلم والحضارة في إيطاليا.

٤- اختراع الطباعة

من المعروف أن الطباعة واحدة من أهم وسائل نشر الثقافة في العالم، وهي واحدة من مفردات الحضارة في العصر الحديث. وعلى الرغم من ظهور الطباعة في ألمانيا على يد جوتنبرج إلا أنها سرعان ما انتقلت إلى أوربا وتطورت بسرعة كبيرة، وتطورت معها صناعات أخرى مثل الورق والحبر والتجليد، الأمر الذي سمح بانتشار الثقافة، فالكتاب المخطوط أقل انتشارا لما يتكلفه من جهد ووقت ومحدودية النسخ ويدويته، أما الكتاب المطبوع فأسهل وأكثر انتشارا، ويسمح بنشر الثقافة بين أكبر عدد من طلاب العلم.

٥- نمو المدن على حساب الريف

وهي سمة من سمات المدنية والحضارة في العالم، فالريف بيئة تشجع على الإقطاع، أما المدينة فهي تشجع على العمل الحر، وتوفر فرص العمل بشكل أكبر بما يسمح بنمو الطبقة الوسطى في المجتمع، لذا كان نمو مجتمعات المدن على حساب الريف واحدة من أهم عوامل قيام النهضة في أوربا.

ثانياً: ميادين عصر النهضة

١- الميدان الثقافي:

تسود الأمم في عصور الضعف والتخلف ثقافة العلوم النقلية أكثر من العقلية، لكن مع بدايات عصر النهضة ظهرت مناهج ونظريات جديدة منها منهج الشك ومنهج النقد البناء كما ظهرت فكرة إحياء الدراسات القديمة للوقوف على مدى تقدم الأمم السابقة والاستفادة من أسباب النهوض والسقوط، ومنهج الشك يدفع إلى البحث العلمي، فلا شيء يقبل مسلما به إلا ما كان من عند الله

٢- الحياة السياسية:

تحرر الفرد من العبودية فزادت قيمته ولم يكن للإنسان قيمة تذكر في العصور الوسطى، وزيادة قيمة الإنسان وجهت الدراسات الجديدة للاهتمام به وبكل ما يتعلق به وبرخائه، كما زاد الإحساس بالمواطنة، فظهرت الدولة القومية، وزاد الولاء للوطن والملك.

٣- الحياة الاقتصادية:

كان المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطى قائم على الزراعة فقط، ومثل هذا المجتمع يفتقد القدرة على التغيير، أما في عصر النهضة دخلت مؤثرات اقتصادية جديدة، فغدت الصناعة والتجارة عماد الاقتصاد الأوربي، وانتعشت حركة الصناعة والتجارة مع تحويل المستعمرات إلى أسواق لتصريف المنتجات، فتكونت شركات عملاقة أثرت الحياة الاقتصادية الأوربية مثل شركة الهند البريطانية الشرقية وشركة الهند الفرنسية الشرقية وغيرها، وتمتعت هذه الشركات بحماية دولها عبر البحار، ثم ما لبثت الدول أن اقتفت أثر الشركات فانتعشت الحركة الاستعمارية.

٤– الآثار وعلم التاريخ:

بدأ الاهتمام بالآثار وعلم التاريخ الوطني في إيطاليا التي تمثل أمجاد روما كباعثين من بواعث النهضة بعد أن تجاهلتها الكنيسة في العصور الوسطى، والتاريخ ذاكرة الأمة والأثر يجسد عظمة الأمة أمام أعين أبنائها، لذا كانت الآثار والاهتمام بالتاريخ من أهم ميادين النهضة الأوربية. وقد كان التاريخ في أوربا في العصور الوسطى يعتمد على الرواه بينما يعرضه للنسيان وتمتزج به كثيرا من الخرافات، كما سيطرت عليه المؤسسة الدينية فطوقته بالعديد من القيود، أما في عصر النهضة فقد بدأ التاريخ يعتمد على التدوين، وأدخلت مدرسة فلورنسا منهج النقد على التاريخ، فخلصته من كثير من الخرافات وحررته من قيود المؤسسة الدينية، وأنتجت كما كبيرا من كتب التاريخ.

٥– اللغات الحديثة:

نمت اللهجات المحلية فكونت لغات قومية جديدة انتعشت مع ظهور الدول القومية، فغدت لغة العوام في البداية ثم ما لبثت أن أصبحت لغة المثقفين والكتاب فكتب بها القصص والأشعار، تعرضت في البداية لنقد شديد ثم ما لبثت أن أصبحت لغة رسمية تقف على قدم المساواة مع اللغة اللاتينية، وبمرور الزمن غدت اللغات القومية لغة رسمية لبلادها، واختفت اللغة اللاتينية القديمة حتى طواها النسيان، لذا فاللغات القومية من سمات عصر النهضة.

٦– الفنون الجميلة:

تعد الفنون الجميلة واحدة من سمات عصر النهضة وإن اعتمدت على التماثيل العملاقة الموروثة من الحضارات القديمة، لكنها اختلفت قليلا، فالفنون التي بدأت في الحضارات القديمة تماثيل عملاقة لم تختف تماما في العصور الوسطى وإنما ظهرت في شكل تماثيل عملاقة للقديسين، ثم تطورت في عصر النهضة لتسترجع التماثيل القديمة بأحجام أقل لكنها متنوعة ومستوحاة من البيئة، ومنضبطة بأسس دينية، لكنها تعلي من قيمة الإنسان أي إنسان، فتحللت من الجانب الديني شيئا ما. أما فنون العمارة فلم تعد قاصرة على الكنائس إنما امتدت إلى القصور والمدارس

واستوحت فنونها وزخارفها من وحي الطبيعة النباتية والفنون الزخرفية الهندسية، وكانت فلورنسا مهد هذه الفنون الجديدة.

٧- مجال الأخلاق والمبادئ:

تراجعت الأخلاق والمبادئ في عصر النهضة قليلا، فبدأ التعبير عن مكنون الإنسان من مشاعر الحب، وهو من المحرمات في العصور الوسطى، فأصبح الشاعر يعبر عن مكنونه تجاه محبوبته، وهذا لم يكن متاحا من قبل، ففي الملحمة الشعرية الكوميديا الإلهية نجد دانتي الجيري يجعل محبوبته باتريشي التي ماتت قبل أن تتزوجه مرشدته في الجنة، في حين أنها في نظر الكنيسة من أهل النار.

ثالثاً: أسباب ظهور النهضة في إيطاليا قبل غيرها

١- الموقع الجغرافي

إيطاليا شبه جزيرة ذات سواحل طويلة للغاية، فهي صاحبة أطول سواحل في القارة الأوربية تقريبا، المر الذي سمح لها بركوب البحار منذ فجر التاريخ، وتتمتع إيطاليا بتربة بركانية خصبة وأمطار شتوية غزيرة فاكتست جبالها وهضابها بالخضرة الينعة طوال العام، فكانت هذه البيئة مصدر إلهام لفناني عصر النهضة، وإيطاليا بها سلسلتان من الجبال يخترقانها بشكل متقطع من الشمال إلى الجنوب فغدت بوتقة صهرت علمائها وجعلتهم أكثر قرباً.

ومثلت إيطاليا بموقعها المتميز حلقة وصل بين أوربا والمشرق الإسلامي، فحملت التجارة بينهما منذ زمن بعيد، وحملت جنود الحملات الصليبية إلى بلدان الشرق الأدنى الإسلامي، فنقلوا الفلك والرياضيات والطب والفنون الإسلامية إلى إيطاليا ومنها انتشرت العلوم والفنون إلى باقي الدول الأوربية.

٢- أسباب تاريخية ودينية

كانت إيطاليا مقر الحضارة الرومانية التي كانت ملئ السمع والبصر في العصور القديمة، وظلت رمزا للحضارة بآثارها العريقة ومخطوطاتها، لذا كان التنقيب عن هذه الآثار والبحث عن تلك المخطوط والاستفادة منها بأسلوب حديث من مقومات النهضة في إيطاليا قبل غيرها.

وكانت إيطاليا أيضا مقر البابوية وقبلة المسيحيين ومهبط الأوربيين وملاذهم طوال العصور الوسطى، ومع تطور البابوية إلى كيان سياسي علماني تخلت عن محاربة الفن والأدب والعلم، بل أصبح الباباوات (باباوات النهضة) رعاة للفنون وأسسوا المكتبات وجملوا روما.

٣- أسباب ثقافية

كان الإيطاليون أول من تأثر بثقافة العرب من الأوربيين عبر التجارة وصقلية ونقلوها -حسبما تقدم- إلى أوربا. ترجم الإيطاليون ما وصلهم من الثقافة العربية إلى اللاتينية والإيطالية.

٤- أسباب اقتصادية

تمتعت المدن الإيطالية بثراء كبير نتيجة التجارة مع الشرق، فتولدت طبقة برجوازية واعية أنفقت على الفنون والموسيقى والثقافة، وأغدق الأمراء ببذخ على الفنانين والأدباء، فتولد جو سمح بظهور الموهوبين، وعم إيطاليا ذوقاً عاماً حسياً ومعنوياً (في العمارة والنحت والرسم)

٥- أسباب سياسية

بتحرر مدن الشمال (لمبارديا وجنوة والبندقية) من الإقطاع الزراعي منذ وقت مبكر أتاح للطبقة البرجوازية بالنمو واحتضان الحركة العلمية، كما تمتعت إيطاليا بسلام طويل الأجل ساهم في ازدهار النهضة. وانقسمت إيطاليا سياسيا إلى عدة كيانات (إمارات وجمهوريات وإقطاعيات) تنافس حكامها في تشجيع الأدب والفن والعلم وتأسيس المكتبات واقتناء المخطوطات واجتذاب العلماء والفنانين، إما حبا في العلم والفن أو لتحقيق مجد شخصي، وأيّاً كان السبب فالنتيجة هي لصالح العلم والعلماء. وفي مقدمة هذه الأسر أسرة المديتشي في فلورنسا التي قربت العلماء، ودخل حلبة المنافسة باباوات عصر النهضة الذين طورا من أنفسهم ووفقوا أوضاعهم قبل أن يتجاوزهم التاريخ فاهتموا بالعلم وشجعوا العلماء والفنانين ومنهم البابا نيقولا الخامس وليو العاشر.

رابعاً: النهضة الفكرية

أ. النهضة العلمية:

ظل سلطان الكنيسة مقيدا لحركة العلم بدرجات متفاوتة حتى القرن السادس عشر الميلادي، لذا سبقت الحركة الفكرية الأدبية نظيرتها في المجالات العلمية التطبيقية، وكانت للاتصالات الفكرية مع العالم الإسلامي عبر جبال البرانس وصقلية أثرها في ظهور التفكير العلمي ومناهج التجريب والملاحظة والشك، وقد أثمرت هذه المناهج نظريات علمية أثبتت صحتها على مدار الزمن، منها أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس، كما شهدت مجالات الطب وخاصة علم التشريح تقدما كبيرا في القرن السادس عشر.

ب. النهضة الأدبية:

اتسمت النهضة المبكرة في إيطاليا بأنها حركة إنسانية تأسست على عنصرين أساسيين هما:

١- حركة إحياء الدراسات القديمة

يطلق على حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية أو اليونانية والرومانية القديمة في أوربا الحركة الإنسانية Humanism وقد بدأت في مدن إيطاليا الشمالية ثم انتقلت إلى باقي المدن الإيطالية في الأوربية، فاهتمت الجامعات بالعلوم البحتة، فيما اهتم حكام المدن بالدراسات الإنسانية، اعتمدت الحركة الأدبية في بدايتها على المخطوطات القديمة (إغريقية ولاتينية أو عربية) ساهم في هذه الحركة الأسرات الحاكمة التي اهتمت بالمخطوطات القديمة وشجعت على جمعها وترجمتها، ورأى الإيطاليون في اللغة اللاتينية إحياء لمجدهم التليد. وساهم في إحياء الدراسات القديمة أيضا هجرة علماء بيزنطة إلى المدن الإيطالية بسبب التهديدات العثمانية، فنقلوا ما لديهم من مخطوطات قديمة وأثروا الحياة الثقافية عامة.

٢- ظهور الطباعة

تعد الطباعة أهم مخترعات عصر النهضة، اخترعها جوتنبرج (ألماني) وتلقفها الإيطاليون، والطباعة أهم وسائل نشر الثقافة التي ظهرت في العصر الحديث، فالمخطوط يجعل الثقافة محدودة الفائدة محصورة في عدد محدود من المهتمين وطلاب العلم، أما الكتاب المطبوع فيتيح الفرصة أمام أكبر قدر من المهتمين وطلاب العلم، لذا كان اختراع الطباعة أفضل مقومات نشر الثقافة في العصر الحديث. ومع الطباعة تطورت الصناعات المصاحبة (الورق والحبر والتجليد) فغدا الكتاب في متناول الكثيرين.

من أعلام النهضة الفكرية

بترارك Petrarch (١٣٠٤- ١٣٧٤م)

أديب تعصب للاتينية وكتب شعرا بالعامية، أول علماء الإنسانيات في العصر الحديث، وينسب إليه الفضل في إحياء الدراسات اللاتينية، ويختلف بترراك عن غيره في أن من سبقوه نظروا للكتابات اللاتينية القديمة على أنها كتابات وثنية تحمل أفكارا بالية، أما بترارك فتعمق فيها واستفاد من تجربة تعامل الرومان القدماء مع مشاكل الإنسانية وهي تتشابه إلى حد كبير مع مجتمع المدينة في عصر بترارك وما يواجهه، كما وجد بترارك في أدب الرومان القدماء اهتماما بالإنسانيات، بعكس أدب العصور الوسطى الذي اهتم فقط بالروحانيات، ويمثل بترراك حركة الوصل بين مفكري العصور الوسطى ومفكري عصر النهضة، فحملت كتاباته أفكار عصر النهضة متمثلة فيما يلي:

- نقمته على تفكك إيطاليا ودعوته لتوحيدها
- تعبيره الصريح عن أحاسيسه إزاء محبوبته بشكل متحلل من الدين
- وصف أجزاء الجسم بشكل متحلل من الدين أيضاً

دانتي الجيري Dante Alighieri (١٢٦٥- ١٣٢١م)

مفكر وسياسي ولد في فلورنسا نفي وشرد ثمناً لآرائه، مر في حياته بثلاث مراحل (الشعر الغزلي- العلوم الفلسفية- النضج الفكري) وهو أول من كتب باللهجة الإيطالية العامية[١]

أهم أعماله الفكرية:

كتاب الملكية

كتاب سياسي يحلم فيه بإرجاع الإمبراطورية الرومانية بشرط ألا يستمد الإمبراطور لقبه من البابا وإنما من الله، والكتاب نابع من مأساته التي مر بها في حياته العملية، ومن أفكاره في الكتاب:

أن الحرب آفة التقدم

أن رجال الدين يستأثرون بالسلطات الدينية بما لا يتفق مع رسالتهم

لابد من إصلاح الكنيسة بنشر الثقافة والقناعة بين رجالها

كتاب الكوميديا الإلهية Devina Commedia

ملحمة شعرية بالإيطالية(١٤,٠٠٠بيت) دينية دنيوية، وهي عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر، قسمها إلى ثلاث مراحل (الجحيم والمطهر والفردوس) وهو يقدم وصفا للحياة الآخرة من وجهة نظر مثقف مسيحي كاثوليكي متحرر إلى حد ما، وقد تخيل أن مرشديه في هذه الرحلة أناس ممن رحلوا إلى العالم الآخر ممن يعتقد أن نهايتهم إلى الجحيم أو إلى الفردوس أو من انتهى بهم المقام في المطهر. وعلى ذلك تخيل دانتي أن مرشده في رحلة الجحيم والمطهر الشاعر الوثني فرجيليوس الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، ليبين له الغامض من أمرهما، ورافقته في الجنة بتريشي محبوبته التي رفض أهلها زواجها منه وماتت في الخامسة والعشرين من عمرها وحزن عليها حزنا شديدا.

---

(١) عمد بعض الكتاب المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم المحلية، وإهمال اللغة اللاتينية الرسمية عن عمد، وكانت قد نشأت لهجات محلية في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا تعتمد على الأصل اللاتيني، بينما ظهرت لهجات في شمالي أوربا معتمدة على الأصل التيوتوني، وحاول علماء كل لغة نحت مفردات جديدة تؤصل اللغة المحلية، حتى أصبحت صالحة لتدوين الأدب والعلوم، وهي سمة من سمات عصر النهضة، وقد اعتمدت اللغة الإيطالية على لهجة أهل توسكانيا الأكثر انتشارا بين شعراء إيطاليا، والمحمية بحكم موقعها من غزوات البربر الشماليين. راجع عبد العظيم رمضان، **تاريخ أوربا والعالم في الحديث من ظهور البرجوازية حتى الحرب الباردة** (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧) جـ١، ص ص ٦٩، ٧٠

ويصور دانتي في الجحيم أصحاب الخطيئة وكيفية العذاب، وقسم الحجيم إلى ٩ دركات في أسفلها النفوس التي جبلت على الفساد وفي أعلاها من غلبت عليهم شهواتهم، وجعل فيها عددا من عظماء رجال الحرب والسياسة والشعر، ويبقى أصحاب الجحيم فيه إلى الأبد، أما المطهر فيمثل التوبة والتطهر ويبقى فيه أصحابه بصفة مؤقتة ينتقلون بعدها إلى الفردوس بعد التطهر من الخطايا. أما الفردوس فيمثل الطهارة والنقاء والإيمان وجعله درجات على هيئة سماوات تنتهي بالذات الإلهية، وفيه أصحاب المثل والأخلاق إضافة إلى محبوبته.

حملت الكوميديا مبادئ العصور الوسطى وإن تمرد على الكنيسة فخالفها في تصنيف أهل الجنة والنار، فجعل فرجيليوس الوثني الذي لم تدركه رسالة المسيح في الجحيم، ومحبوبته الطاهرة النقية –من وجهة نظره بالطبع– في الفردوس، في حين أنها في نظر الكنيسة خاطئة وهي من أهل الجحيم، وكتبها بالعامية الإيطالية. والكوميديا في مجملها تدعو إلى الأخلاق والفضيلة لينعم الإنسان بالفردوس في الآخرة.

مكيافيللي Machiavelli (١٤٦٩– ١٥٢٧م)

نبيل من فلورنسا، خدم في حكومتها (١٤٩٤– ١٥١٢) نال مكيافيللي شهرة واسعة في عالم السياسة (المكيافيلِّيِّة) انزعج لتفكك إيطاليا، واعتقد أن سبب التفكك أمران:

- الانقسام السياسي فالبابا لا يسمح بتوحيد إيطاليا ولا يملك القدرة على توحيدها
- الضعف العسكري وانشغال الإيطاليين بالفنون والمال واستعانتهم بالمرتزقة

وتكمن سبل العلاج عنده في:

- قص أجنحة البابوية
- إحياء الروح العسكرية في الشعب وتأسيس جيش وطني
- إشعال الحروب ذات الصبغة القومية، فالسلام الدائم يؤدي إلى الضعف والانحلال، والخوف والحرب يؤديان إلى القوة والاتحاد
- الاهتمام بالقوانين فهي من مصادر قوة الدولة
- مراعاة الدين والأخلاق ضمان لتماسك المجتمع
- أباح للحاكم استخدام القسوة لبتر الفساد وإصلاح المجتمع

وأهم كتبه التي جسدت أفكاره في السياسة:

كتاب الأمير

قسم مكيافيللي كتاب الأمير ٢٦ فصلاً بسط فيه آرائه وأهمها أن الإرهاب والخداع وسيلة السياسة المشروعة، وأعفى رجال السياسة من قيود المبادئ والأخلاق لتحقيق مصلحة الدولة فالغاية عنده تبرر الوسيلة، لذا أصبح كتاب الأمير نبراساً للطغاة، عمل على تشجيع النظام الجمهوري الذي يسمح للشعب بالمشاركة السياسية ويتيح الفرصة أمام الكفاءات.

أما عن دوافعه لهذا الكتاب أنه كتبه وهو يعاني الفقر والحرمان بعد تفكك جمهورية فلورنسا. ارتفع مكيافيللي إلى البحث عن أسباب مشاكل وطنه الكبير (إيطاليا) ووسائل العلاج، لكن المشكلة الآن أن المكيافيلّية غدت مرادفة للغدر والخداع والتحلل من الأخلاق، فالطغاة يتناسون آراء مكيافيللي في الحرية والديمقراطية ولا يأخذون سوى تبريره لجرائم الحكام.

خامساً: النهضة الفنية

ارتبطت الفنون في العصور الوسطى بالمؤسسة الدينية التي تمقت الحياة وتتجنب لذاتها، وتحصر اهتمامها في القديسين، فالتزم الفنانون بموضوعات وألوان وقواعد محددة، وحلت صور وتماثيل جامدة للقديسين والرسل والعذراء محل الآلهة الوثنية. أما الفنون في عصر النهضة فقد تحللت من قيود العصور الوسطى، ففي فن التصوير والنحت كانت التماثيل القديمة مصدر إلهام لنحاتي عصر النهضة، مع الاهتمام بالإنسان بصفة عامة وإبراز مفاتن الجسم البشري بكل أعضائه بلا خجل ولا حياء، ودخلت عناصر الطبيعة من نباتات وزهور في المشاهد الفنية بجميع الألوان الزيتية، مع تقليد الحضارات القديمة في إبراز جمال الجسد البشري، وضعف الأثر الديني وتراجع اللاهوت.

أما الفن المعماري فقد تأثر في بدايته بالفنون المعمارية الرومانية القديمة، فظهرت عناصر أساسية مثل الأعمدة والأعتاب وما يعلوها من الأفاريز والكرانيش، والأسقف المسطحة والأقواس، وعلت الجدران الزخارف الهندسية والرسومات، ثم ما لبثت أن تطورت فأبدع مهندسوها متأثرين بالفن القوطي، مع تعديلات تجعله يتوافق مع حالة الطقس، فظهرت الأقبية العالية والدعائم الطائرة في الكنائس والكاتدرائيات والقلاع، وغلب عليها الطابع الدفاعي للتأمين ضد هجمات البربر الشماليين، أما المنازل في عصر النهضة فغلب عليها طابع المتعة لأصحابها والناظرين إليها.

وفي أواخر عصر النهضة غلبت الضخامة على عمارة الكنائس، ففي سنة ١٥٠٩ تم هدم كنيسة القديس بطرس وأعيد بناؤها فغدت تسع ستين ألف شخص واشترك في تصميمها وبناؤها وزخرفتها أعظم المهندسين والفنانيين آنذاك ومنهم مايكل أنجلو ورافاييللو.

من أعلام الفنون في عصر النهضة

ساندرو بوتشيللي

مصور امتازت صوره بالرقة والجمال تنطق حيوية وحركة، صور الطبيعة والأزهار بتفاصيلها، من أعماله (صورة الربيع- تتويج العذراء - مولد أفروديتي)

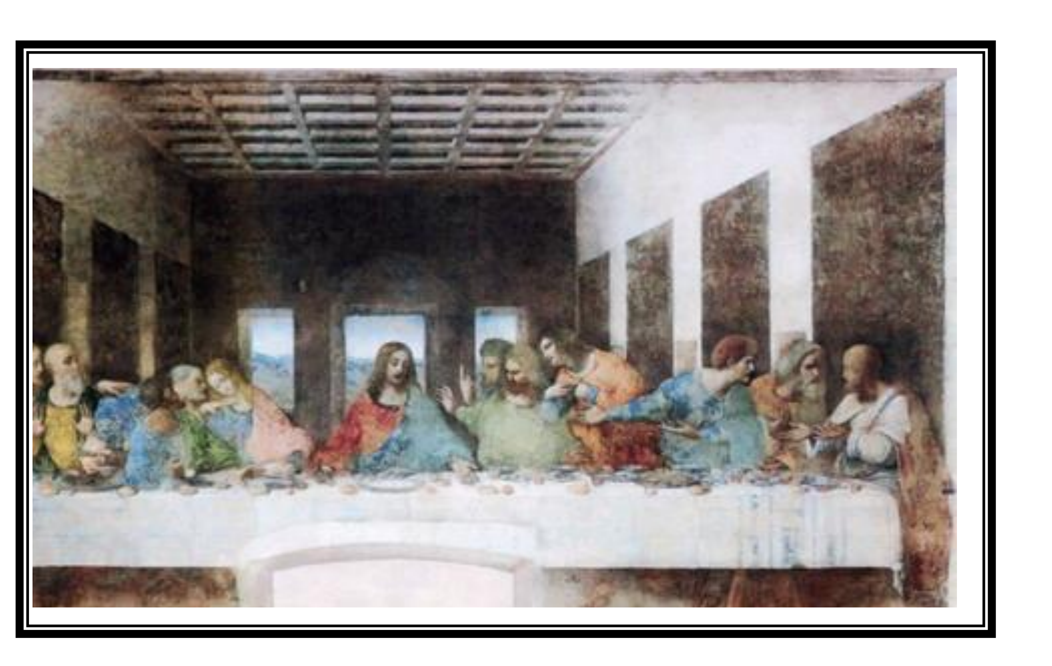
ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢- ١٥١٩م)

عالم شمولي (مهندس، رسام، نحات، موسيقي، شاعر، جيولوجي وجراح) وإن حاز شهرة كبيرة في فن الرسم، ولد في فنشي قرية جبلية بجانب مدينة فلورنسا في مطلع القرن السادس عشر، أعظم فناني عصر النهضة ربط بين المثل الفنية والعلمية، أعظم أعماله الموناليزا أو الجيوكندا وهي صورة رسمها عام ١٥٠٦ لسيدة فرنسية، متزوجة من ضابط يدعى فرانشسكو دل جيوكوندا، واللوحة محفوظة بمتحف اللوفر بفرنسا، وعلى الرغم من أن السيدة ليست على قدر من الجمال إلا أن الابتسامة الغامضة التي تبدو على وجنتيها هي سر جمالها. أما لوحة العشاء الأخير على حائط دير الرهبان الدومنيكان في ميلان فقد رسمت بالزيت ولعل هذا هو سبب تلف



الموناليزا

الصورة، والصورة جمعت بين السيد المسيح وحوارييه في آخر عشاء جمع بينهم، والصورة مليئة بالانفعالات تبين الصورة سماحة السيد المسيح عليه السلام وصفائه وهدوئه، وهو يعلن على حوارييه أن أحدهم (يهوذا) سوف يخونه مقابل المال، والذهول والاستنكار باديا على وجه الجميع، استغرق رسمها ثلاث سنوات (١٤٩٥- ١٤٩٨) ومن لوحاته أيضا العذراء والطفل.



لوحة العشاء الأخير

مايكل أنجلو Michel Angelo

عالم شمولي نحات ورسام ومهندس معماري وشاعر، ولد في قرية كابريسة بالقرب من فلورنسا، من أعظم نحاتي العالم، تأثرت أعماله بالروح الوطنية، من أعماله، تمثال العذراء والطفل الرخامي، وصورة العائلة المقدسة في متحف فلورنسا، صلب القديس بطرس، وهداية القديس بولس (في قبة كنيسة القديس بطرس) أما أعظم أعماله على الإطلاق سقف كنيسة سيستو التي استغرق أربع سنوات ونصف، رسمها مستلقيا على ظهره فوق سقّالة، قسم مايكل أنجلو السقف إلى ثلاث مجموعات تمثل خلق العالم، خلق آدم وحواء والخطيئة، قصة نوح. ومن لوحاته المهمة لوحة يوم الحساب التي رسمها على سقف كنيسة سستين في الفاتيكان، استغرق رسمها ثماني سنوات، وتمثل البشر رجالا ونساء عرايا يوم الحساب وهم في هول وفزع لما ينتظرهم من عقاب، والسيد المسيح على عرش غضبان من خطايا شعبه من بعده، ولأنجلو تماثيل عملاقة أهمها تماثيل باخوس، داود، موسى، والعذراء والطفل)

رفايلّو سانتيزيز Raffaello Sanzio (١٤٨٣- ١٥٢٠)

تلميذ أنجلو ودافنشي، تأثر بالأول في دراسة الجسد الإنساني، وتأثر بالثاني في أساليب توزيع الضوء على الصورة، لكنه فاقهما في توزيع الألوان وتناسقها، فكان فنانا مبدعا غير مقلد. كان رافايّلو ذو حظوة لدى البابا ليو العاشر، كان فنانا مبدعاً لكنه مات شاباً، من أعماله صلب المسيح، تتويج العذراء، مدرسة أثينا التي استوحاها من وصف دانتي لها في الكوميديا الإلهية، ووضع فيها تاريخ الفلسفة، كما لخص تاريخ الكنيسة في لوحة "السر المقدس".



الفصل الثاني

الكشوف الجغرافية

وبدايات حركة الاستعمار

تعد حركة الكشوف الجغرافية واحدة من أهم ملامح العصر الحديث في القارة الأوربية بصفة خاصة وفي تاريخ العالم الحديث بصفة عامة، فقد ترتب عليها نتائج خطيرة سواء في تاريخ العالم أو في تاريخ القارة البيضاء، فقد مثلت الكشوف الجغرافية بداية انفتاح القارة البيضاء على العالم، وخروجها إلى العالم بنمط جديد غلبت عليه الصبغة الاقتصادية، وإن انطلقت من دوافع دينية تمثلت في نجاح حركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا. وقد عددت أسباب حركة الكشوف الجغرافية وتباينت في أهميتها.

أولاً: أسباب حركة الكشوف الجغرافية:

١- أسباب دينية:

تأتي الأسباب الدينية في مقدمة أسباب حركة الكشوف الجغرافية لا لكونها الأكثر أهمية فقد تتقدم عليها الأسباب الاقتصادية، ولكن لكونها العامل الأقدم ممثلا في حركة الصراع الإسلامي الصليبي في شبه جزيرة أيبيريا الذي جاء مكملا لفصول حركة الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي وإن اختلف الميدان، يؤكد هذا الرأي خروج الكشوف الجغرافية من شبه جزيرة أيبيريا بدولتيها البرتغال وأسبانيا قبل غيرها من دول أوربا، كما يدعم هذا الرأي أن بداية حركة الكشوف مع الأمير هنري الملاح كان هدفها الاستيلاء على طنجة ولما فشل تحول إلى الساحل الغربي رغبة في نشر المسيحية، وكذلك اتجاه البرتغاليين إلى البحر الأحمر والخليج العربي وتوعدها بنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن وصلوا إلى الهند.

وقد استمر الصراع في شبه جزيرة أيبيريا ما يقرب من قرن من الزمان، وقد ساد اعتقاد لدى مسيحي شبه جزيرة أيبيريا أن مساعدات مسلمي المغرب والعالم الإسلامي لمسلمي الأندلس مدت في عمر الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا حوالي مائة عام، وهو اعتقاد في محله، لذا حاولوا الانتقام من مسلمي المغرب والعالم الإسلامي بعد نجاحهم في إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة وهو أمر يتطلب ركوب البحار بسفن كبيرة الحجم.

وكان للأسباب والدوافع الدينية أثر كبير رغبة في حرمان المشرق الإسلامي من عوائد التجارة القادمة من الهند والشرق الأقصى والتي كانت تأتي إلى أوربا عبر بلدان العالم الإسلامي. وساد اعتقاد لدى البرتغاليين أن هناك إمبراطورية مسيحية كبرى كائنة جنوبي العالم الإسلامي يمكن التحالف معها لغزو العالم الإسلامي، في إشارة إلى الحبشة.

٢- أسباب اقتصادية:

لاشك أن الدوافع الاقتصادية تلعب دورا أساسيا في تحريك عجلة التاريخ، وفي هذا الإطار كانت الرغبة لدى الأوربيين في الوصول إلى الشرق الأقصى والهند للحصول على متاجر المناطق الحارة بأسعارها دون وسيط، وقد لعب الوسيط العربي عبر العصور القديمة والوسطى دورا مهما في نقل متاجر المناطق الحارة إلى الغرب الأوربي وحصل على المقابل، لذا ركز المستكشف البرتغالي تحديدا على الوصول إلى متاجر الشرق وحرمان العالم الإسلامي منها لذا قال القائد البرتغالي في خطبته لجنوده في مدينة ملقا إن إبعاد العرب عن نجارة التوابل هي الوسيلة التي نرجو بها إضعاف قوة الإسلام، ومن لهجة الخطاب نتبين أن الهدف لم يكن اقتصادي بحت إنما له بعد ديني أيضاً، فلم يتوقف عند حد السيطرة على خيرات الشرق. ومن هنا تظهر مهارة البرجوازية في جر المجتمع لتحقيق مصالحها برفع شعار الدين، فاحتكار تجارة الشرق وانتزاعها من يد المسلمين لا يحقق سوى مصالح الطبقة البرجوازية، أما رفع شعار القضاء على المسلمين أو إضعافهم يستثير مشاعر الطبقة العامة العريضة من الشعب التي تمثل السواد الأعظم للجيوش.

وقارة أوربا صغيرة المساحة ضاقت بأهلها أصبحت لا تفي بمتطلبات الطبقة البرجوازية الجديدة، فكان البحث عن مصادر خارجية للثروة مطلبا ملحا للبرجوازية الجدية، وهي ليست المرة الأولى التي يخرج فيها الأوربيون بحثا عن سعة الرزق فقد خرج أجدادهم اليونانيون والرومان في العصور القديمة. ومع التوسع في الصناعة – وإن كانت في بدايتها– تطلع الأوربيون للحصول على المواد الخام من مناطق خارجية

٣- أسباب علمية:

لاشك أن الجهل يعرقل تقدم الأمم، فمع الجهل تنتشر الخرافات المعوقة، فقد أدى اختفاء سفن المغامرين الأوائل في غياهب البحار إلى انتشار أفكار جاهلية منها أن هناك وحوش في هذه البحار تلتهم السفن بمن فيها، وأن الماء ترتفع حرارته كلما اتجه البحارة جنوبا حتى يصل إلى درجة الغليان فتستحيل معه الحياة، في حين أن اختفاء سفن البحارة المغامرين يرجع إلى عدم وجود وسائل استرشادية مع البحارة في بحار مترامية الأطراف تختفي معها العلامات الأرضية الاسترشادية فلا يعرف الاتجاهات الصحيحة ومن ثم يكون مصيره الهلاك، فتعمقت هذه الأفكار بين البحارة حتى أنهم أطلقوا على المحيطات الكبرى بحار الظلمات، وهي تسمية إلى حد كبير صحيحة.

وظل الحال في أوربا على الحالة تلك إلى أن تقدم المشرق الإسلامي فظهرت أفكار علمية ووسائل بحرية استرشادية مثل البوصلة والاسترلاب، وبهما يمكن تحديد الاتجاهات الأصلية والفرعية في عرض البحر، إضافة إلى تقسيم الأرض تقسيمات بخطوط طول ودوائر عرض افتراضية، ليتمكن البحار من تحديد مكانه على الأرض على وجه التقريب.

وظهرت فكرة كروية الأرض، وكان الفكر السائد قبل ذلك أن الأرض مستوية، وقد ظهر ذلك في الفكر الإسلامي ففي القرآن الكريم موضعان يدلان على ذلك الموضع الأول في سورة النازعات يقول الحق تبارك وتعالى " *والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها* .. " والدحية في اللغة هي البيضة وهو وصف دقيق يتطابق مع الصور الجوية الملتقطة للأرض بالأقمار الصناعية، والموضع الثاني في سورة "ق" في قوله تعالى " *والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج* .. " والشيء الممتد بلا نهاية هو الشيء المستدير كلما سرت فيه امتد أمامك، وقد وصف العالم المسلم "ابن رسته" في كتابه "الأعلاق النفسية" الأرض بأنها تسبح في الفضاء كالمح يسبح في البيضة، وهو وصف دقيق متقدم للأرض في العصور الوسطى.

انتقلت هذه الأفكار على أوربا في نهاية العصور الوسطى فأعانتهم على تغيير أفكارهم فيما يتعلق بركوب بحار الظلمات، وانتعشت فكرة إمكانية الوصول إلى الشرق الأقصى بالإبحار غرباً دون المرور على العالم الإسلامي. وقد ساعد على تنفيذ هذه الأفكار في أوربا وجود بحارة مغامرون مثقفون، كما ساهم التقدم العلمي في بناء سفن كبيرة متينة تتحمل الأمواج العاتية في عرض البحر، فقد كانت السفن الصغيرة الضعيفة واحدة من أسباب تحطم سفن المغامرين في عرض البحر وعدم عودتهم.

ثانياً: الكشوف البرتغالية:

الأمير هنري الملاح (١٣٩٤- ١٤٦٠)

بدأت حركة الكشوف الجغرافية بداية شبه رسمية بطموحات الأمير هنري المعروف في التاريخ بهنري الملاح ابن ملك البرتغال John I الذي أحب الملاحة وتعلم تعليما دينيا وسار على خطى أبيه باعتباره جندا من جنود المسيح، وكان أبون قد تمكن من غزو مدينة سبتة المغربية سنة ١٤١٥م وطرد منها سكانها المغاربة، ثم تعلم الفلك فأسس أول أكاديمية بحرية متخصصة في أوربا ليتخرج فيها البحارة على أسس علمية حديثة، مساهمة منه في كشف مناطق جديدة ينشر فيها المسيحية، حاول هنري غزو طنجة ١٤٣٦م ولكنه فشل، نظرا لوجود الحكومة السعدية القوية.

تحول هنري إلى ساحل غرب أفريقيا لنشر المسيحية. وصل إلى جزر أزوراس وكناري والرأس الأخضر سنة ١٤٤٥م ومصب رأس نهر السنغال، ثم تقدم بموازاة الساحل الغربي لأفريقيا حتى وصل إلى ساحل غانا قبل وفاته في عام ١٤٤٥، كان هنري يسعى للحصول على المال عن طريق التجارة لتدعيم مشروعاته المالية، لكنه كلما تقدم على

الساحل الأفريقي لم يجد سوى صحراء جرداء وحياة بدوية بسيطة، فلجأت قواته إلى خطف الأهالي لبيعهم رقيق في أسواق أوربا.

واصل أتباع هنري المسيرة من بعده فاجتازوا خط الاستواء سنة ١٤٧١ وحطموا أسطورة غليان الماء عند هذا الخط، ثم وصلوا سنة ١٤٨٢ إلى مصب نهر الكونغو. احتكر البرتغاليون الملاحة والتجارة في الساحل الغربي لأفريقيا، ومارسوا خطف الأهالي لبيعهم في أسواق أوربا.

بارثولوميو دياز

أرسله يوحنا الثاني ملك البرتغال (١٤٨١- ١٤٩٥م) بقصد الدوران حول أفريقيا والوصول للهند، وصل إلى جنوب أفريقيا ١٤٨٧م وأطلق عليها (رأس العواصف) لما واجهه من عواصف شديدة في المنطقة، لكن يوحنا الثاني عدّل الاسم إلى (رأس الرجاء الصالح) تيمناً. وفي سنة ١٤٩٢ دخلت أسبانيا إلى ميدان الكشوف الجغرافية فوقع الخلاف بينها وبين والبرتغال، فاحتكموا إلى البابا فعقد بينهما معاهدة توردسلاس ١٤٩٤، قسم بمقتضاها مناطق النفوذ بينهما بخط وهمي يقع على بعد ٣٧٠ ميلا غربي الرأس الأخضر.

فاسكو دا جاما Vasco da Gama

قاد فاسكو دا جاما حملة في يوليو ١٤٩٧م للدوران حول أفريقيا والوصول إلى الهند، وبالفعل تمكن دا جاما من الدوران حول أفريقيا ثم سار بمحازاة الساحل الأفريقي حتى وصل على بلاد الصومال ثم أبحر شرقا في بحر العرب حتى وصل إلى الهند، فوصل إلى مدينة قاليقوط وعاد منها محملا بالتوابل والبخور، فوصل إلى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٩م ليكون أول برتغالي يصل إلى الهند، لكنه أكد لملك البرتغال أن العرب المسلمين مسيطرين على مواني الهند وتجارتها ولا سبيل لاحتكار تجارة الهند إلا بالقضاء على الوجود العربي هناك.

أمريجو فسبوتشي

لم تكن الهند هي آخر مكتشفات البرتغال فقد انحرف كابرال البرتغالي سنة ١٥٠٠ غرباً، فوصل إلى البرازيل واعتبرها الملك عمانويل (١٤٩٥- ١٥٢٠م) كشفاً جديداً، وأمر فسبوتشي أن يقتفي أثر كابرال، فاقتفى أثره وتوصل إلى نتجة خطيرة مؤداها أن الأراضي الجديدة التي اكتشفها كريستوفر كولمبس ليست الهند وإنما هي أرض جديدة، ثم عاد ونشر في أوربا أبحاثا مدعمة بالخرائط تؤكد فكرته، فلما تأكدت فكرته كرّمه الأوربيون بإطلاق اسمه على الأرض الجديدة.

الوجود البرتغالي في الهند

باكتمال طريق رأس الرجاء بدأ البرتغاليون في تكوين محطات مسلحة على طول الساحل الأفريقي، بهدف تمويل السفن في رحلات الذهاب والإياب وممارسة التجارة على نطاق ضيق وبخاصة تجارة الرقيق والموز وجوز الهند والكاكاو والصمغ والأخشاب. وأرسل ملك البرتغال حملة مصغرة لإرغام حاكم قاليقوط على التعامل مع البرتغاليين ووقف التعامل مع العرب، فقام القائد البرتغالي بضرب مدينة قاليقوط في أغسطس ١٥٠٠ واشتبك مع المسلمين هناك ثم عاد، استنجد حاكم المدينة بالسلطان الغوري الذي رحب فأرسل حملة لتأكيد نفوذ المسلمين هناك.

قرر البرتغاليون فرض سيطرتهم على كل المراكز التجارية الممتدة من مدخل البحر الأحمر (صخرة عدن) حتى الهند وفرض رسوم جمركية عالية على السفن العربية المارة بها. وبالفعل أسس القائد البرتغالي دالميدا d' Almeida عددا من القواعد أو المستعمرات الصغيرة، لكن واجهته مشكلة قلة عدد الجنود، نظرا لأن البرتغال تعاني من نقص كبير في إمكاناتها البشرية، اشتبك دالميدا مع الأسطول البحري المملوكي في ديو ١٥٠٩ وحقق انتصارا عليه، لكنه قتل في معركة أخري في العام التالي (١٥١٠) ثم جاء من بعده البوكيرك فأحكم السيطرة على مدخل باب المندب واستولى على هرمز فأحكم السيطرة على مدخل الخليج العربي، ثم استولى على ساحل ملبار وملقا وحاول على مدار ثلاث سنوات الاستيلاء على عدن لكنه فشل، وعاجلته المنية في عام ١٥١٥م.

ما لبث النفوذ البرتغالي أن دخل مرحلة الضعف والانهيار في منتصف القرن السادس عشر، لعدة أسباب أهمها نقص الموارد البشرية في البرتغال، ودخول العثمانيين حلبة الصراع بدلا من المماليك، انتشار النفوذ الأسباني في البرتغال نفسها حتى أسقطتها واستولت عليها تماما عقب وفاة الملك هنري، واستولت الهند على معظم المستعمرات البرتغالية.

ثالثاً: الكشوف الأسبانية:

كريستوفر كولمبس(١٤٥١- ١٥٠٦)

ولد كولمبس في مدينة جنوه صاحبة التاريخ الطويل في ركوب البحر المتوسط والتجارة بين الشرق العربي والغرب الأوربي، وهو بحار مغامر مثقف، آمن بكروية الأرض ومن ثم إمكانية الوصول إلى الهند بالإبحار غرباً. عرض كولمبس مشروعه على ملوك أوربا عسى أن يتبنى أحدهم المشروع فيموله. لم يجد فرديناند ترحيبا بمشروعه لدى ملوك أوربا وأمرائها باستثناء فرديناند وإيزابلا ملك وملكة أسبانيا اللذان تحركهما الدوافع الدينية، فهم لم ينتهوا

بعد من حروب إخراج المسلمين من الأندلس، لكنهما طلبا مهلة حتى ينتهوا من حربهما مع أبو عبد الله ملك غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة.

في سنة ١٤٩٢ تمكن فرديناند من هزيمة أبو عبد الله واستولى على غرناطة، فتفرغ لمشروع كولمبس، الذي أبحر من أسبانيا في ٣ أغسطس بثلاث سفن واصطحب معه عددا من البحارة واحتياجاتهم من المأكل والمشرب واعتقد خطأ أن الرحل لن تستغرق أكثر من شهر، تأخر وصولهم أكثر من شهرين فكاد البحارة أن يقتلوه لولا ظهور الطيور، بما يدل على أن اليابسة قريبة فتتبعوا الطير حتى وصلوا إلى مجموعة من الجزر المعروفة بجزر الباهاما والتي أطلق عليها كولمبس جزر الهند، فلما تبين للأوربيين أنها ليست الهند أطلقوا عليها جزر الهند الغربية ليفرقوا بينها وبين الهند الشرقية.

عاد كولمبس إلى أوربا يحمل بشارة الوصول إلى الهند بالإبحار غربا، ومحملا بمتاجر البلاد الجديدة وعينات من طيورها وحيواناتها كما اصطحب عينة من السكان المحليين الذين أطلق عليهم فيما بعد الهنود الحمر. عاد كولمبس إلى أوربا تاركا حامية من رجاله على اعتبار أن هذه الأرض أصبحت من ممتلكات أسبانيا، لكنه أخطأ في اصطحابه لمجموعة من السكان فأصرهم بضاعة مع الطيور والحيوانات دون مراعاة لمشاعرهم ومشاعر ذويهم، فكان جزاؤه أن عاد فوجد الأهالي أبادوا حاميته. قام كولمبس بثلاث رحلات أخرى كشف باقي جزر الكاريبي وشاطئ أمريكا الوسطى، دون أن يتوصل إلى أنها أرض جديدة لا علاقة لها بالهند.

لم ينعم كولمبس بكشفه طويلا فقد وشى به أعداؤه عند الملك لأنه لم يحضر ذهبا كافيا يغطي نفقات رحلاته، فدبت شكوك أنه يعمل لحسابه فحبسه الملك فرديناند، ولكن الملكة إيزابيلا تعاطفت معه فعفت عنه وأخرجته من السجن واصل رحلاته لكن إيزابيلا توفيت عام ١٥٠٥ ولحق بها كولمبس في العام التالي.

مجلان Magellan (١٤٧٠- ١٥٢١)

نبيل برتغالي كان يحلم بالوصول إلى الشرق بالإبحار غرباً، لكنه كان مغضوباً عليه في البرتغال فلجأ إلى أسبانيا لتحقيق حلمه، فقام برحلته لصالح ملك أسبانيا، بدأ مجلان رحلته بخمس سفن في أغسطس ١٥١٩ من حيث انتهى كولمبس فوصل إلى البحر الكاريبي ثم دار حول ساحل أمريكا الجنوبية، وواجهته عواصف شديدة عند جنوبه، لكنه عندما عبر المضيق الذي نسب فيما بعد له (مضيق مجلان)، وجد المياه هادئة جداً، فأطلق على هذا المحيط اسم (المحيط الهادئ)

تمكن مجلان من عبور المحيط الهادئ ووصل في مارس ١٥٢١ إلى جزر في الشرق الأقصى أطلق عليها (الفلبين) نسبة إلى فيليب بن ملك أسبانيا، فكان أول من أثبت كروية الأرض عملياً، لكنه لقي حتفه في نزاع مع سكان إحدى الجزر في إبريل ١٥٢١م. تولى دلكانو قيادة الحملة فواصل الرحلة إلى الهند ثم أسبانيا عبر رأس الرجاء الصالح، استغرقت الرحلة ثلاث سنوات.

النشاط الاستعماري الأسباني

حاول شارل ملك أسبانيا أن يرسل حملتين إلى جزر الفلبين وجزيرة سومطرة عامي ١٥٢٥ و١٥٢٦ ليجعل منهما نقطتي ارتكاز لمنافسة البرتغال ويتقاسم معها ثروات الشرق الأقصى، لكن هذه الحملات صعدت من حدة الخلاف بين البلدين، فتراجع ملك أسبانيا واكتفى بالتوسع في العالم الجديد بعيدا عن نفوذ البرتغال، وكان قد أرسل كورتيز Cortez سنة ١٥١٧ لضم بلاد المكسيك، فتمكن من دخولها والسيطرة عليها في سنة ١٥٢١، ثم أرسل ملك أسبانيا بيزارو إلى بيرو وشيلي في أمريكا الجنوبية وهي بلاد مشهورة بالذهب، فتمكن من ضمها، فامتلأت خزائن أسبانيا بالذهب والفضة الأمر الذي أثر سلبيا على باقي الدول الأوربية. أسس الأسبان مدنا جديدة وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر وصلت جيوش أسبانيا إلى فنزويلا وكولمبيا بعد أن قضوا على جنس الأنكا سكان البلاد الأصليين. وفي أواخر القرن السادس عشر سمح للأسبان بالهجرة إلى العالم الجديد. وتم إنشاء مكتب لتصريف أمور الهند الغربية في العاصمة الأسبانية.

وسرعان ما دخلت هولندا وإنجلترا وفرنسا ميدان الكشف والاستعمار. وهكذا نجح المغامرون الأوربيون في اكتشاف عالم جديد عرف بالأمريكتين، بعد أن كان المعلوم من العالم هو القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في تطور علم الجغرافيا وما يتعلق بالكرة الأرضية من معارف سواء ما يتعلق بشكلها أو بعدد قاراتها، وغدت البحار والمحيطات وسيلة للاتصال بعد أن كانت وسيلة انفصال. ومع الكشوف الجغرافية بدأت الحركة الاستعمارية الأوربية في العالم الجديد والهند، الأمر الذي نقل العالم نقلة نوعية كبرى، وبدأ التنافس والتناحر بين الدول الأوربية داخل القارة وفيما وراء البحار. كما تنافست على استنزاف ثروات العالم الجديد، وترتب على ذلك تطور هائل في حركة التجارة العالمية استغلتها الدول الأوربية فحققت ثراء فاحشا. واستغلت الكنيسة حركتي الكشوف الجغرافية والاستعمار في نشر المسيحية في كل المناطق التي وصلتا إليها، ساعدها على ذلك وجود ديانات وضعية وعدم وجود ديانات سماوية في معظم تلك المناطق سواء في العالم الجديد أو جنوب شرق آسيا. وقد أذن هذا الحدث (الكشوف الجغرافية) بارتفاع نجم الحضارة الغربية وأفول نجم الحضارة العربية.

الفصل الثالث

الإصلاح الديني

مارتن لوثر والخروج على الكنيسة

إذا كان ظهور الطبقة البرجوازية قد أذن بنقل أوربا من عصر الظلمات إلى النور، وزلزل أركان الإقطاع فقد زلزل معه أيضا الكيان الكنسي المتسلط، الذي كان يملك ثلث أرض العالم الكاثوليكي بما يجعل من البابا أكبر سيد إقطاعي في أوربا، فمهد القارة البيضاء لإصلاح ديني كبير أسفر عن مولد مذهب جديد هو المذهب البروتستانتي وبشر بإصلاح في الكيان الكاثوليكي ذاته، ولم يكن أمر الإصلاح الديني بالأمر الهين على الرغم من تمهيد الأرض وتهيئة الظروف.

أولاً: إرهاصات الإصلاح قبل مارتن لوثر

كانت الكنيسة قد فرضت سلطانها على الناس في العصور الوسطى بدعوتها للتقشف وتعذيب الذات في الحياة الدنيا مقابل التمتع بالنعيم في الآخرة، لتؤصل للإقطاع دون نقاش، في الوقت الذي تمتع فيه رجال الدين بالحياة وغرق بعضهم في ملذاتها، فكان ذلك مدعاة للتشكك في رجال الكنيسة لدى بعض المستنيرين ممن تلقوا العلم في الخارج، كما فرضت الكنيسة على أتباعها الإذعان لتعاليمها دون نقاش وكأنها أوامر ربانية، وكان قبول أوامر الكنيسة والإذعان لها دليل على الإيمان فقتلت فيهم روح البحث والنقد.

ومع عصر النهضة أدى تقدم العلوم وانتشار روح البحث إلى زيادة الرغبة في النقد، نقد كل شيء بما في ذلك ما تبشر به الكنيسة، وتواكبت هذه الروح مع رغبة الأوربيين في التخلص من سلطان البابا الزمني والعودة بالمسيحية إلى صفائها الأول. وكان عصر النهضة قد مهد لذلك بعد أن زلزل أركان الإقطاع وضعف تحالف الإقطاع والكنيسة الذي ساد طوال العصور الوسطى، ودان الناس لسلطان العلم وخلعوا ربقة الكنيسة.

وإذا كانت الكنيسة قد نجحت في عصر النهضة في تطوير نفسها لتتوافق مع الأوضاع الجديدة فتحولت إلى كيان علماني، إلا أن كثير من باباوات عصر النهضة استمروا على فسادهم، وبلغ الفساد ذروته على يد البابا اسكندر السادس (١٤٩٢- ١٥٠٣) وخليفته يوليوس الثاني (١٥٠٣- ١٥١٥) فالأول عاشر سيدة متزوجة وأنجب منها أربعة

أولاد، وعين أحدهم كردنالا واشتهر هو وولده بالفساد والقتل والحرمان البابوي في سبيل جمع المال، كما أنجب من أخريات. أما يوليوس الثاني فقد حقق أهدافه الدنيوية عن طريق الحرب والسياسة، فكون عن طريقهما أملاكا كبرى للباباوية. وغدت الوظائف الدينية تباع وتورث للأبناء طالما كانوا قادرين على دفع المقابل المادي، ففقدت الكنيسة مكانتها الروحية، من هنا بدأت الدعوات في غرب أوربا لإصلاح الكنيسة وإعادة صياغة العلاقة بين الباباوية والعالم المسيحي. (١)

بدأت الدعوة للعودة إلى الكتاب المقدس وحده ورفض سيطرة البابا بأصوات فردية لبعض العلماء منهم:

- جون ويكليف Jon Wickliffe (١٣٣٠– ١٣٨٤) في إنجلترا
- يوحنا هوس John Hoes (١٣٧٠– ١٤٥٠) في بوهيميا

وحاول بعض رجال الدين إصلاح الكنيسة في مجمع بازل ١٤٣٠ لكن محاولاتهم باءت بالفشل وتحطمت على صخرة رجال الدين الكاثوليك.

ثانياً: مارتن لوثر والإصلاح في ألمانيا

عند الحديث عن الإصلاح الديني في أوربا يطفو على السطح تساؤل مهم: لماذا ظهرت حركة الإصلاح في ألمانيا قبل غيرها من دول أوربا؟ ويرجع ذلك إلى عدة عوامل اجتماعية واقتصادية تتمثل في الآتي:

١. ظهور طبقة برجوازية كبيرة احتكرت التجارة بين ألمانيا وإيطاليا، كان لها شأن عظيم في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في مدن ألمانيا بما أنفقته في جذب العلماء.
٢. وجود طبقة من الفرسان الذين كانوا يعملون في خدمة الأمراء، ثم انتهت خدمتهم وتم الاستغناء عن خدماتهم نظرا لتقلص المصالح الإقطاعية فكانوا على استعداد للثورة في أي وقت اعتراضا على الأوضاع القائمة في البلاد.
٣. طبقة الفلاحين التي كانت تئن تحت قيود الإقطاع فكانوا يحرمون من صيد الحيوانات في الغابات وصيد الأسماك في المجاري المائية، وكانت تنتهك حرمة بيوتهم وأراضيهم، لذا كانت هذه الفئة مستعدة للثورة في أي وقت على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وعلى الكنيسة التي كانت جزءا من الإقطاع، والتي أسرفت في فرض ضريبة العشور عليهم.
٤. حقد الألمان على الكنيسة الكاثوليكية التي كانت في عداء مستمر مع إمبراطور ألمانيا الضعيف الذي لم يستطع حماية رعاياه من جشع رجال الدين الذين أدمنوا جمع المال وبناء الكنائس الضخمة في عصر النهضة.

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، جـ١، ص ص ١٠٩– ١١١

٥. طبع الكتاب المقدس في ألمانيا فأصبح في متناول الكثيرين، مخالفين بذلك تعاليم الكنيسة، ولم يعد تفسيره حكرا على رجال الدين، وقد وقه الألمان على العديد من المخالفات التي وقع فيها رجال الدين، فأثار ذلك في نفوسهم الشك في رجال الدين.

أما فيما يتعلق بمارتن لوثر Martin Luther فقد ولد في إحدى قرى إقليم سكسونيا ١٤٨٣ والده عامل بسيط في التعدين، عاش حياة ريفية متقشفة، درس القانون واللاهوت في جامعة وتنبرج ١٥٠٥، التحق بأحد أديرة القديس أوغسطين وانخرط في سلك الرهبنة والتعبد، وفرض على نفسه حياة التعبد والزهد والتقشف التي تصل إلى درجة تعذيب الذات أملا في الخلاص من خطاياه، ثم غادر الدير ليعمل أستاذا للفلسفة بجامعة وتنبرج سنة ١٥٠٨م.

وترجع أسباب ظهور فكرة الإصلاح إلى أن لوثر كان متديناً عاش في شك من أن الله سيغفر له، زاد خوفه عندما زار روما سنة ١٥١٠ ورأى مفاسد البابوية، إضافة إلى انتشار الفساد والانحطاط الخلقي العام في عصر النهضة.

وتتلخص عقيدة لوثر ونتاج فكره في أن الإيمان هو الوسيلة الوحيدة للمغفرة، أما وسائل الكنيسة من حج، احتفالات دينية، مسابح، صكوك غفران، وإيقاد شموع لا يجدي في غفران الذنوب. وأن غاية العبادة والصلاة إرضاء الله وشكره لا غفران الخطايا، كما طالب بأن يكون الكتاب المقدس المصدر الوحيد لتفسير المسيحية، لا اجتهادات القديسين.

عارض لوثر حملة يوحنا تتزل John Tetzel ١٥١٧ لبيع صكوك الغفران في ألمانيا لصالح البابا، وعلق على باب كنيسة وتنبرج احتجاجاً به ٩٥ سبباً لرفض صكوك الغفران.[1] ضرب لوثر فكرة الغفران من أساسها فاعتبرها عتقا من عقوبات الكنيسة وليست عتقا من عذاب لله، فالله وحده بيده الغفران، والبابا لا يملك أن يفعل شيئا للروح في المطهر سوى الصلاة (الدعاء) وما لبثت حجج لوثر أن ذاع صيتها في أوربا كلها.

---

(1) أساس فكرة الغفران أن القديس بطرس وأتباعه يمكنهم توزيع ثواب لا ينتهي على المذنبين، ونبع الفيض تضحيات المسيح وشروطه: (كانت في البداية) اعتراف وتوبة وتكفير بعبادة من حج أو صوم أو صلاة، ثم استبدلوا الصوم والصلاة بالاشتراك في حملة صليبية، يحصل بمقتضاها المقاتل على صك من البابا بالغفران، ثم اتسعت دائرة التكفير لتشمل زيارة روما، زيارة قبور القديسين، المساهمة في بناء الكنائس، ثم اقتصرت أخيراً على دفع الأموال، وصك الغفران هو صك من الورق يمنح للمذنب به وعد بالغفران أو تقليل المدة التي يقضيها المذنب في المطهر، وذلك لقاء مبلغ من المال يدفعه للبابا أو من ينوب عنه، وما لبث الغفران أن توسع فأصبح يتم جماعيا في احتفالات كبرى، وشمل الحياء والأموات. عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، جـ١، ص ص ١١٥- ١١٩

في عام ١٥١٩ وجه لوثر دعوة للأمراء الألمان طالباً: أن ينزعموا حركة الإصلاح في بلادهم، وإخضاع رجال الدين للسلطة المدنية، ولا يجب أن يحتكر البابا تفسير الكتاب المقدس، وأن يكون الحج إلى بيت المقدس وإبطال الحج إلى روما، وطالب السماح للرهبان بالزواج لأنها تناقض الطبيعة البشرية، كما طالب بإباحة الطلاق

تفاقم الخلاف بين لوثر والبابا وموقف المجتمع الألماني:

أرسل لوثر إلى البابا رسالة أوضح له فيها مفاسد رجال الدين والمفاسد التي ترتكب باسم البابا شخصيا، وتوعده بالمقاومة ما بقي على قيد الحياة، لذا أصدر البابا ليو العاشر ١٥٢٠ قرار بحرمان لوثر. رد لوثر بحرق القرار علنا في ميدان وتنبرج في ١٠ أغسطس ١٥٢٠م، فأصدر البابا أوامره للإمبراطور لتنفيذ حكم الحرمان في لوثر، عقد الإمبراطور مجمعا في ورمز في يناير ١٥٢١ لمناقشة لوثر في آرائه، ولم يكن بوسع الإمبراطور اتخاذ إجراء ضد لوثر الذي أصبح بطلا في نظر الألمان، حضر لوثر المجمع ورفض التنازل عن أي من آرائه، فاعتبره المجمع خارجا على السلطة القائمة وأهدر دمه، كما حرم إيواءه أو قراءة كتاباته.

لقيت دعوة لوثر تأييد من المجتمع الألماني وأمرائه وفي مقدمتهم حاكم سكسونيا، من منطلق قومي، فآواه مدة عام كامل عكف خلالها لوثر على ترجمة الإنجيل على اللغة الألمانية، فأصبح متاحا للجميع ولم يعد حكرا على البابا ورجال الدين. واحتج لوثر وأتباعه على قرارات حرمانه وإهدار دمه فأطلق عليهم اسم المحتجين Protestant، وإذا كانت قرارات الحرمان وإهدار الدم قد منعت لوثر من التحرك بين الناس فإن أفكاره انتشرت في المجتمع الألماني انتشار النار في الهشيم، وظهر كتاب لفيليب ملانكتون أحد الفلاسفة المقربين من لوثر يحمل أفكارا كاثوليكية قديمة بنظام تعبدي قائم على الكتاب المقدس وحده. وظهرت حركة ثورية في غرب ألمانيا تتبنى انتزاع أملاك البابوية، وهي فكرة نادى بها لوثر من قبل لإرغام الكنيسة على العودة إلى بساطتها، لكنه لم يؤيد انتزاع هذه الممتلكات بالقوة ليبقى على الحركة إصلاحية دينية. كما ثار الفلاحون على أوضاعهم في الأراضي الألمانية وطالبوا بإلغاء رق الأرض أو إبراز ما يؤكد من الإنجيل أنهم أرقاء، والسماح لهم بالصيد في البر والبحر، وتحديد القيمة الإيجارية للأرض، وتحديد الخدمات الإقطاعية التي يؤديها الفلاح للسيد الإقطاعي. وبلغت ثورة الفلاحين حد الخروج المسلح وحققوا بعض الانتصارات لكن لوثر انحاز للأمراء وتنكر للفلاحين. وفشل لوثر في التوفيق بين الفلاحين والأمراء فخسر تأييد هذه الشريحة المهمة.

لعب الخطر العثماني دوراً في تهدئة الصدام بين السلطة الدينية والسياسية مع لوثر وصلت إلى حد الاعتراف ببعض المبادئ اللوثرية مثل "الكتاب المقدس المصدر الوحيد للإيمان" ثم تنكر البابا في كل مرة، فانقسمت ألمانيا قسمين بين البابا ولوثر.

تفرغ لوثر لبناء العقيدة الجديدة فألغى الرهبة، وسمح بزواج القسس والرهبان، وتزوج من الراهبة كاترين فون بورا ١٥٢٥، ووضع أسس العقيدة الجديدة وسرعان ما انتشرت عقيدة لوثر بين الألمان، لاسيما بعد أن أعطى الإمبراطور للأمراء حق اعتناق العقيدة التي يرونها عام ١٥٢٥، وعندما تراجع الإمبراطور عن هذا القرار سنة ١٥٢٩ احتج الأمراء اللوثريون القرار وتمسكوا بالعقيدة الجديدة، لذا عرفوا بالمحتجين Protestants. حاول الأمراء الكاثوليك تشكيل حلف نورمبرج سنة ١٩٣٩ ضد العقيدة الجديدة لكن الولايات البروتستانتية انضمت في تحالف أخذت رقعته في الاتساع، الأمر الذي أزعج البابا فدعا الطرفين لمجلس في ترانت سنة ١٥٤١ لحل المشكلة خوفا من انقسام ممتلكاته، لكن البروتستانت رفضوا حضور المجلس.

موت لوثر ومصير المذهب:

عندما رفض البروتستانت حضور مجمع ترانت لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية، فقرر المجمع استخدام القوة ضدهم، وبعد قليل توفي لوثر في ١٧ فبراير ١٥٤٦م، انقسم البروتستانت على أنفسهم فانحاز دوق ساكسونيا إلى جانب الإمبراطور، وحقق الإمبراطور والبابا انتصاراً ضد الولايات البروتستانتية في عام ١٥٤٧ وتمكنوا من أسر معظم قادة البروتستانت، لكنهما فشلا في القضاء على المذهب.

وفي مايو ١٥٤٨ دعا الإمبراطور لعقد مجلس في أوجسبرج وحاول توحيد ألمانيا ينيا، فقدم مذهباً توفيقياً يؤمن بالمبادئ الكاثوليكية مع السماح لرجال الدين بالزواج، لكن الطرفان قابلوه بالرفض، حول الإمبراطور فرض المذهب الجديد بالقوة، فتمسك البروتستانت بعقيدتهم وعاد دوق ساكسونيا إلى حظيرة البروتستانت مرة أخرى، وانشغل الإمبراطور بمسألة وراثة العرش، وهدد الأمراء البروتستانت بالتحالف مع ملك فرنسا، فأمر الإمبراطور بعقد جلسة صلح في أوجسبرج مع البروتستانت في سنة ١٥٥٥.

صلح أوجســبرج

تضمن الصلح بين الإمبراطور والأمراء البروتستانت:

١- إحياء المبدأ الذي تم إقراره في مجلس سبير بإعطاء كل أمير حق اختيار المذهب المناسب لإمارته، وألزم المعترضين بالرحيل عن الإمارة، فاعترف الصلح بتقسيم ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك، لكنه جعل الناس على دين ملوكهم

٢- يحتفظ البروتستانت بأملاك الكنيسة الكاثوليكية التي حصلوا عليها قبل ١٥٥٢، وتعاد للكنيسة الكاثوليكية الأملاك التي أخذت منها بعد هذا التاريخ.

ثالثاً: الإصلاح الديني في باقي أوربا:

لم يقف حد انتشار البروتستانتية على ألمانيا وإنما انتشر في كثير من دول أوربا الغربية، تجاوبت معظم دول الغرب الأوربي مع لوثر لسببين:

١- تشابه الظروف الاجتماعية والدينية في بلدان أوربا

٢- كانت الشكوى من رجال الدين وتكالبهم على الدنيا شكوى عامة

فانتشرت مبادئ لوثر المعارضة للكنيسة الكاثوليكية في الدول الإسكندنافية والأراضي المنخفضة وفي إنجلترا وفرنسا، فتأسست أول كنيسة قومية في النرويج التابعة آنذاك للدانمرك سنة ١٥٦٠، وتم ترجمة الإنجيل إلى اللغة الدانمركية، وفي السويد دخلت البروتستانتية في عهد جوستاف فاسا (١٥٢٣- ١٥٦٠) وتسربت المبادئ اللوثرية إلى المقاطعات السويسرية. ومن الملاحظ أن حركات الإصلاح الديني في أوربا اتفقت في خروجها على الكنيسة الكاثوليكية وإن اختلفت في دوافعها وأهدافها من منطقة إلى أخرى.

أ. الإصلاح الديني في سويسرا

ظلت سويسرا حتى قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ضمن أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة مع الولايات الألمانية، لكن قبضة الإمبراطور كانت عليها ضعيفة، إلا أن السياسة الجائرة من جانب آل هابسبورج دفعت ثلاث ولايات في نهاية القرن الثالث عشر للاتحاد دفاعا عن حقوقها ضد طغيان آل هابسبورج، فكونوا نواة للاتحاد السويسري، كافح الاتحاد السويسري على مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر للتخلص من سلطان الدولة الرومانية، ومع طول فترة النضال انضمت كثير من الولايات إلى الاتحاد السويسري للمطالبة بالحرية. ظلت الإمبراطورية الرومانية لا تعترف باستقلال الولايات السويسرية حتى نهاية القرن الخامس عشر، فعندما قام الإمبراطور مكسيمليان الأول بإنشاء مجلس الدايت لحفظ الأمن وجمع الضرائب، كان من المفترض أن تشمل اختصاصات الدايت الولايات السويسرية، لكن الاتحاد السويسري رفض ودخل في حرب ضد الإمبراطور ونجح في تحقيق الانتصار، فاضطر ماكسميليان إلى عقد صلح بال ١٥٠٠ واعترف فيه بعدم خضوع الاتحاد السويسري لمجلس

الدايت، لكنه ظل رهن التبعية الاسمية للإمبراطور إلى أن حصل على استقلاله بشكل نهائي في صلح وستفاليا ١٦٤٨م. (١)

بدأ الإصلاح في سويسرا ديني وطني على يد أوليريخ زوينجلي Ulrich Zwingly (١٤٨٤– ١٥٣١) القس المثقف بكنيسة زيورخ، تأثر زوينجلي بأفكار لوثر فهاجم الرهبنة واستعمال اللاتينية في الصلاة، لكنه اختلف عن لوثر في ثلاثة أمور:

–انطلق من فكر قومي فاهتم بالإصلاح السياسي والاجتماعي
–طالب بأن يدير الكنيسة هيئة منتخبة لا تخضع للأمراء
–لا يرى زوينجلي مانعاً من استخدام القوة في نشر المذهب
تصدى زوينجلي لمبعوث البابا لبيع صكوك الغفران في زيورخ عام ١٥١٩ ندد بمظالم الحكام ضد الطبقات الفقيرة من الشعب، وحارب ظاهرة اشتغال أهل سويسرا بالحرب كأجراء لدى الدول المجاورة (الارتزاق) انتهى أمر الإصلاح الديني في سويسرا بانقسامها إلى مقاطعات بروتستانتية وأخرى كاثوليكية بعد حرب اشتعلت بين الفريقين عام ١٥٣١ وانتهت بهزيمة البروتستانت وقُتل زوينجلي نفسه وأحرق الكاثوليك جثته، ثم تم الصلح بين الفريقين في العام التالي ليقر أحقية كل ولاية في اختيار عقيدتها. (٢)

ب. الإصلاح الديني في جنيف

قاد الإصلاح الديني في جنيف جون كالفن John Calvin (١٥٠٩– ١٥٦٤) الذي درس علم اللاهوت في باريس وعين أسقفا، لكنه تفتحت عيناه على أفكار جديدة فدرس أحوال المصلحين ومنهم مارتن لوثر، ثم ترك وظيفته سنة ١٥٣٤ ورحل عن فرنسا إثر اضطهاد الملك فرانسوا الأول للبروتستانت، تنقل بين عدة مدن إلى أن استقر به المقام في جنيف عام ١٥٣٦، أصدر كالفن كتابا بعنوان تنظيمات الدين المسيحي Institutes of Christian وضع فيه خلاصة أفكاره. أسس كالفن كنيسة اتفقت مع العقيدة اللوثرية في أهم مبادئها وهي اعتبار الكتاب المقدس المرجع الوحيد في قضايا الإيمان،(٣) لكنه اختلف عن لوثر في أمرين أساسيين هما:

---

(١) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر** (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧) ص ص ١٠٥– ١٠٧

(٢) البطريق ونوار، **التاريخ الأوربي الحديث**، ص ص ١٠٧، ١٠٨

(٣) البطريق ونوار، **التاريخ الأوربي الحديث**، ص ١٠٨

- الغفران هبة من الله، لا يتوقف على أعمال الإنسان.

- الثواب والعقاب مقدر على الإنسان منذ الأذل ولا دخل للأعمال بخيرها وشرها فيه.

ويشبه مذهب كالفن مذهب القدرية في الفكر الإسلامي، أجاز كالفن الثورة على الحكومة المدنية إذا خرجت عن كلمة الله، وفي نهاية المطاف أسس جون كالفن في جنيف حكومة ثيوقراطية متشددة في الدين والأخلاق عملت على تنصير المجتمع في كافة جوانبه، حاول كالفن إيجاد مجتمع كنسي، فأنشأ مجلسا مدنيا خاصا من القسس وكبار المواطنين الصالحين، مهمته معاقبة المخالفين، واهتم في طقوس الكنيسة بالوعظ والإرشاد وشرح أصول العقيدة، ومنع صور المسيح والعذراء والقديسين، واستعمل الشموع بدلا من البخور، واستبدل الغناء بالتراتيل، ومنع استعمال الموسيقى في الكنائس، وعارض تدخل الحكم المدني في أمور الكنيسة بأي شكل من الأشكال، كما أسس ١٥٥٥جامعة لتخريج القسس البروتستانت على مذهبه. تعاطف معه الكثيرين ونفر منه أيضا الكثيرين بسبب شدته وعنفه في فرض مذهبه، الأمر الذي أدى إلى انقسام جنيف، فلما كثر معارضوه وأحس بالخطر رحل عن جنيف سنة ١٥٣٨ وتنقل بين عدة مدن، غير أن أهل جنيف استعانوا به مرة أخرى فعاد إليها سنة ١٥٤١ وظل بها إلى أن مات في ٢٧ مايو ١٥٦٤م. [١] انتشر مذهب كالفن في فرنسا والأراضي المنخفضة، لكن تعرض أنصار هذه الكنيسة في فرنسا للاضطهاد، ولم يسمح لهم بممارسة شعائرهم بحرية إلاّ بعد قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩.

ج. فرنسا والإصلاح الديني

حكمت أسرة فالو فرنسا منذ مطلع العصور الحديثة، ويرجع الفضل في استقرار حكم الأسرة في فرنسا إلى لويس الحادي عشر (١٤٦١- ١٤٨٣) الذي استقرت في عهده الحدود الفرنسية وأسس جيشا ملكيا قويا، وجمع كل أمور الحكم في يده وقلص دور مجلس الطبقات ودور المدن التي تنزع إلى الاستقلال، وغزا إيطاليا فدخل في حرب مع أسرة آل هابسبورج عام ١٤٤٩م.

انتشرت البروتستانتية على مذهب لوثر في البداية في فرنسا، ثم مال زعماء الإصلاح إلى مبادئ كلفن المكتوبة بالفرنسية، وأطلق عليهم الهيوجونت Huguenots وقد استهوى الفكر الإصلاحي كثير من الأمراء الإقطاعيين فانتشرت الأفكار الإصلاحية في فرنسا بسرعة. وجاء انتشار الفكر الإصلاحي في فرنسا في فترة أحكم ملوك فرنسا قبضتهم على البلاد، فكان الملك فرانسوا الأول يرفع شعار "ملك واحد ودين واحد وقانون واحد" كما نجح في عقد اتفاق بولونيا

---

(١) البطريق ونوار، **التاريخ الأوربي الحديث**، ص ص ١٠٩، ١١٠

مع البابا سنة ١٥٦١ وبمقتضاها اعترف البابا لملك فرنسا بحق تعيين أساقفة بلاده ورؤساء الأديرة، وكانوا من قبل يتبعون البابا في روما، لذا لم يتحمس ملوك فرنسا للمذهب البروتستانتي فلم يجدوا فيه مكسبا لهم.

كان فرانسوا الأول يبغض البابا ويفضل الفكر الإصلاحي إلا أنه خشي من تفتيت فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت كما حدث في ألمانيا فقرر التصدي للهيوجونت، فبدأ في اضطهادهم عام ١٥٣٥، واستمر خلفاؤه في سياسة الاضطهاد حتى عام ١٥٧٥، فوقعت كثير من المعارك وارتكبت العديد من المذابح ضد الإصلاحيين، وفي العام الأخير تولى العرش هنري الرابع صاحب الميول الكلفينية فحصل الإصلاحيون على مكاسب كبيرة، وبدا وكأن فرنسا قد انقسمت على نفسها بين البروتستانت والكاثوليك، ولم يخل تاريخ فرنسا من صراعات ومذابح متبادلة بين الطرفين، يتوقف تأييد القيادة السياسية على ميل القائمين عليها لأحد الطرفين.

د. الإصلاح الديني في إنجلترا

دخل الإصلاح الديني إنجلترا في عهد أسرة التيودور[(١)] (١٤٨٥- ١٦٠٣م) وتحديدا في عهد هنري الثامن (١٥٠٩- ١٥٤٧) ثاني ملوك التيودور، لم يكن هنري الثامن على خلاف مع البابا بل كان من أتباعه الحريصين عليه، وقد هاجم لوثر وعقيدته ومنهجه الأمر الذي لقي استحسان البابا فأطلق عليه لقب "حامي العقيدة الكاثوليكية، ولم يكن الشعب الإنجليزي ميالا للعقيدة البروتستانتية، وإنما كان في معظمه كارها لرجال الدين منصرفا عنهم، ولعب القنال الإنجليزي (بحر المانش) دورا في حماية إنجلترا من مشكلات القارة الأوربية عسكريا وفكريا، ففي الوقت الذي كانت تموج فيه أوربا بخلاف حاد بين الكاثوليك والبروتستانت، اقتصر التأثير البروتستانتي في إنجلترا على بعض الأفراد، وحاولت جامعة كامبريدج دراسة العقيدة اللوثرية الجديدة بوصفها ظاهرة فكرية. وعلى ذلك كانت إنجلترا بعيدة فكريا عن الفكر الإصلاحي الديني الذي كانت تموج به أوربا في القرن السادس عشر.

---

(١) وصلت أسرة التيودور إلى الحكم إثر حرب أهلية عرفت باسم "حرب الوردتين (١٤٥٥- ١٤٨٥) ويميز حكم أسرة التيودور في إنجلترا سياسة الزواج الملكي مع الأسرات الحاكمة في أوربا، في محاولة للتوسع السلمي وتوسيع رقعة الدولة بطريقة وراثة العرش على حساب العروش الأخرى، فتزوجت ماري تيودور من فيليب الثاني ملك أسبانيا ١٥٥٤، كما تزوجت مرجريت ابنة هنري السابع من جيمس الرابع ملك اسكتلندا، وصار ابنها ملكا على اسكتلندا بعد ابيه، وبلغ الأمر ذروته بان آل ملك إنجلترا سنة ١٦٠٣ إلى جيمس السادس ملك اسكتلندا، لينهي حكم أسرة التيودور، وفي عهد هذه الأسرة أيضا انصرفت بريطانيا عن فكرة التوسع في أوربا وبدأت تتجه إلى العالم الجديد، لتلحق بكل من أسبانيا والبرتغال، لتؤسس لإمبراطورية جديدة غدت في القرون الثلاث التالية لا تغيب عنها الشمس. زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث (دار الفكر العربي، القاهرة، ج١، د.ت) ص ص ١١٨- ١٢٢

جاء الإصلاح في إنجلترا من منطلق سياسي، عندما حاول الملك هنري الثامن أن يطلق زوجته كاترين الأسبانية التي لم تنجب له سوى بنت واحدة فخاف على عرشه أن يؤول إلى أسرة زوجته الأسبانية، فقرر أن يتزوج من آن بولين الإنجليزية، لكنه فوجئ برفض البابا الذي كان أسيرا في قراراته آنذاك للإمبراطور الذي لعب دورا كبيرا في وصوله إلى كرسي البابوية، فجاء قرار رفض الطلاق بإيعاز من الإمبراطور الذي كانت تربطه بكاترين صلة قرابة، لم يأتي رفض البابا لقرار الطلاق مباشرا وإنما أحال القضية إلى محكمة تعقد في روما بعضوية اثنين من الكرادلة أحدهما إيطالي والآخر إنجليزي، ورفضت المحكمة طلب الملك بالطلاق.

عزم الملك هنري على تحدي سلطة البابا واستعان في ذلك بجامعات أوربا التي ناصرت حقه في الطلاق مقابل ما أغدقه عليها من مال، كما استعان الملك بالبرلمان الإنجليزي الذي عرف في التاريخ ببرلمان الإصلاح، فأصدر البرلمان في عام ١٥٣١ عدة تشريعات تحد من سلطة البابا في إنجلترا، وتمنع استئناف قضايا الزواج والطلاق في روما، وقام توماس كرانمر أسقف كانتربري بإتمام الطلاق وأعلن الملك هنري على الملأ زواجه من آن بولين. اعتبر البابا حدثي الطلاق والزواج باطلان، وهدد الملك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا أصر على الطلاق والزواج الجديد.

رد البرلمان الإنجليزي على تهديدات البابا بالتصديق على زواج الملك من آن بولين وقرر قطع علاقة الكنيسة الإنجليزية بكنيسة روما في عام ١٥٣٤، كما قرر منع إرسال الأموال السنوية إلى البابوية، وتأسيس كنيسة وطنية كاثوليكية عرفت بالإنجليكانية تحت إشراف ملك إنجلترا نفسه، وبذلك أصبحت كنيسة إنجلترا منفصلة تماما عن البابوية، وقضى هنري على معارضيه من الأساقفة الموالين للبابا، ثم قضى على نظام الأديرة محتجا بما فيه من مفاسد، لكن الهدف الحقيقي كان قطع كل صلة للكنيسة الإنجليزية بروما، وتوج الملك هنري كل ذلك بقانون المواد الست الذي حدد فيه عقائد الكنيسة الإنجليكانية الجديدة؛ وتضمن عدم زواج رجال الدين، والاعتراف بالوجود الفعلي للقربان، وإقامة الحفلات المقدسة وأهمية الاعتراف، وتناول القربان المقدس بطريقة واحدة، وظل الملك يعدل في هذه المواد حتى أصدر سنة ١٥٤٥ كتاب الصلوات ليتضمن المبادئ التي يتعبد عليها الإنجليز، والملاحظ أن هذه المبادئ تؤصل للعقيدة الكاثوليكية.

تسللت البروتستانتية زمن الملك إدوارد VI (١٥٤٧– ١٥٥٣) الذي خلف أباه هنري الثامن وهو ابن تسع سنين، ويرجع الفضل في نشر البروتستانتية في عهده إلى خاله دوق سمرست الوصي على العرش والذي كان يميل إلى الإصلاح، فنشأ إدوارد تنشئة بروتستانتية، ألغى البرلمان قانون المواد الست الذي سبق أن أقره في عهد هنري الثامن، وفي عام ١٥٥٢ أصدر البرلمان قانونا باستخدام كتاب جديد أعده كرانمر استمد أفكاره من البروتستانتية. حاولت الملكة ماري تيودور (١٥٥٣– ١٥٥٨) القضاء على حركة الإصلاح البروتستانتي فأمرت بإحراق كرانمر وعدد كبير

من أساقفة البروتستانتية ومناصريها، وأعادت الكنيسة الإنجليزية إلى حظيرة البابوية، غير أن هذه الاضطهادات جاءت بنتائج عكسية، فقد اعتبرها الإنجليز تحد لقوميتهم، كما لفت شهداء الإصلاح نظر الناس بثباتهم وهم يواجهون التعذيب والقتل، فاكتسبت العقيدة البروتستانتية أنصارا جدد في إنجلترا.

حاولت الملكة إليزابيث (١٥٥٨– ١٦٠٣) التوفيق بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي في الكنيسة الإنجليكانية لتصبح بروتستانتية الروح كاثوليكية المظهر والطقوس، في محاولة للحفاظ على وحدة الدولة دينيا، لكن الطرفان رفضا إجراء الدمج، فالدين لا يقبل القسمة على اثنين، لذا تفشل عادة الديانات التوفيقية، فانقسمت إنجلترا بين الكاثوليك والبروتستانت وانفصلت الكنيسة الإنجليكانية عن كنيسة روما مرة أخرى في عام ١٥٥٩.

رابعاً: حركة الإصلاح الكاثوليكي من الداخل:

الدعوة للإصلاح من الداخل قديمة قدم الدعوات الإصلاحية في أوربا، فقد ظهرت أصوات داخل الكنيسة الكاثوليكية تعلن مفاسد الكنيسة وتطالب بإصلاحها من الداخل؛ ومن أبرز هؤلاء الألماني ويحنا رويخلين (١٤٥٥– ١٥٢٢) الذي استعان في تفسير العهد القديم من الكتاب المقدس باللغة العبرية وكشف مع تلاميذه قدرا كبيرا من مفاسد الكنيسة في محاولة لإصلاح الكنيسة من الداخل ولم يستهدف الخروج عليها، لكن حركته أدت في النهاية إلى زيادة السخط على البابوية، ومن الإصلاحيين الذين دعوا لإصلاح الكنيسة من الداخل في وقت مبكر إيرازموس Erasmus (١٤٦٧– ١٥٣٦) الذي ترجم العهد الجديد من الكتاب المقدس من اليونانية القديمة إلى اللاتينية فكشف عن أخطاء في الترجمة القديمة، فزلزلت الثقة في قداسة الكتاب المقدس المعترف به من الكنيسة الكاثوليكية وفي المبادئ التي نادت بها الكنيسة من قبل، فعقدت عدة مجامع كنسية كان آخرها مجمع بازل بسويسرا سنة ١٤٣١، حاولت هذه المجامع إصلاح الكنيسة من الداخل وجعل قراراتها فوق قرارات البابا للحد من سلطة البابا ويمنع عنه بعض أموال الكنيسة، لكن وصول نيقولا الخامس إلى كرسي البابوية ١٤٤٧ حال دون تنفيذ هذه القرارات. [1]

ومع زيادة انسلاخ بلدان أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية ارتفعت الأصوات داخل الكنيسة الكاثوليكية تنادي بالإصلاح لتفادي المشكلات والاتهامات التي اتهمها بها المعارضون، وإزالة الأسباب التي أبعدت عددا كبيرا عن أحضان الكنيسة الأم إلى الكنيسة البروتستانتية الجديدة، وافق البابا بولس III تحت إلحاح من الإمبراطور شارل الخامس الذي كان يريد القضاء على الانقسامات الدينية داخل ممتلكاته، وافق البابا على دعوة مجمع مسكوني في مدينة ترانت ١٥٤٢ استمر المجمع في حالة انعقاد متقطع لمدة ٢١ سنة (١٥٤٢– ١٥٦٣) وقرر:

---

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، جـ١ ص ص ١١١– ١١٤

أ- فيما يتعلق بنظام الكنيسة

١. تحريم زواج رجال الدين
٢. استعمال اللاتينية وحدها في الصلاة
٣. ضرورة فتح مدارس لتخريج رجال الدين
٤. اعتبار البابا خليفة للمسيح والرسل
٥. منع جمع أكثر من أسقفية في يد واحد

ب- فيما يتعلق بالقضايا العقائدية

١. رفض نظرية كالفن القدرية
٢. رفض نظرية لوثر في الخلاص بالإيمان قبل الأعمال
٣. مصادر الإيمان الكتاب المقدس باللاتينية والتقاليد القديمة (سنة القديسين)

ج- استحداث جماعات مراقبة منها:

١- الجزويت (اليسوعيين)

من أهم الجماعات التي حافظت على كيان الكنيسة الكاثوليكية بالقوة في هذه الفترة الحرجة، أسسها الأسباني إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola (١٤٩١- ١٥٥٦) فارس أسباني من أسرة عريقة خدم في الجندية، غلبت عليه الروح الدينية، عكف على قراءة الإنجيل سنة كاملة عندما أصيب بجرح أصابه بالشلل عام ١٥٢١، وهب حياته لخدمة الكنيسة الكاثوليكية وحج إلى بيت المقدس، أسس ليولا جماعة اليسوعيين أثناء الدراسة في باريس، ووضع شروطا للانضمام للجماعة منها العفة والطهر والتقشف والطاعة وأخذ النفس بالقسوة، فحيا الجزويت حياة شبه عسكرية صارمة.

وهبت الجماعة نفسها لخدمة الدين المسيحي واختارت بيت المقدس مكانا لتنفيذ سياستها وتعهدت بالدعوة إلى انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين، ولما تعذر تحقيق هذا الهدف بسبب سيطرة العثمانيين على المنطقة يممت الجماعة وجهها تجاه روما وعرضت خدماتها على البابا الذي رحب بها، ووافق البابا على إعفاء الجماعة من الضرائب وعدم خضوعها لأي سلطة زمنية.

نجحت الجماعة بالعنف في وقف تيار البروتستانت الجارف في ألمانيا والنمسا ومنعته تمما من التقدم في كل من إيطاليا وأسبانيا، فبقيتا كاثوليكتي المذهب. أعاد الجزويت الهيبة إلى البابا والكنيسة الكاثوليكية.

تدخل الجزويت في السياسة بما لهم من مستشارين في وزارات كثير من دول أوربا، كما نجحوا في فرض هيمنتهم على التربية والتعليم وأشرفوا على إدارة العديد من المدارس في مختلف أنحاء أوربا، واهتموا بتنظيم هذه المدارس ورعايتها فكانت أداة لإحياء المذهب الكاثوليكي في نفوس أبنائه من جديد، فبلغت المدارس التي أشرفت عليها الجماعة عند موت ليولا مائة مدرسة، زادت خلال القرن التالي سبعة أضعاف. كما مارس الجزويت التبشير بالمسيحية فيما وراء البحار، فارسلوا بمبشريهم إلى الأراضي الجديدة في الأمريكتين والشرق الأقصى لاكتساب أنصار جدد.[1] وبذلك جمع الجزويت بين القوة والعنف والقسوة في التعامل مع أعدائهم واعتماد منهج التربية بعيد المدى بين أنصارهم.

٢– الفهـــــرس

في سنة ١٥٤٣ طالب مجمع ترانت البابا بوضع قائمة بالكتب المضللة والخطرة على الفكر الكاثوليكي، على أن يتم تحديث الفهرس كل فترة. أصدر البابا بول الرابع أول فهرس سنة ١٥٥٩، فضم كتب لوثر وزوينجلي وكالفن، وتمت عليه عدة تعديلات طوال القرن الخامس عشر، وظل معمولا به حتى أواسط القرن الثامن عشر. تخطى الفهرس الكتب الدينية إلى العلمية، فحرم البلدان الكاثوليكية من ثمرة العلم

٣– محاكم التفتيش

اقترح اجناتيوس ليولا على البابا بول الثالث إنشاء محكمة تفتيش في روما على نسق المحاكم الأسبانية ضد المسلمين، وبالفعل وافق البابا وصدر قرار بها في يوليو ١٥٤٢، وهي محكمة مقدسة للنظر في القضايا المخالفة وإرسال مفتشين لمراقبة الخارجين عن الكنيسة، لكنها كانت أخف وطأة من محاكم التفتيش الأسبانية، فلم تتبع وسائل التعذيب وإحراق الأحياء واكتفت بمصادرة الكتب المنافية أو المعارضة للفكر الكاثوليكي، وتتبع أصحاب الأفكار الخارجة على الكنيسة الكاثوليكية وطردهم من إيطاليا وتخليص البلاد منهم، واقتصر عملها على إيطاليا.

ضمت المحكمة ستة كرادلة (من رجال الدين) منحهم البابا سلطة التحقيق في كل الأمور المتعلقة بالدين ومحاكمة زعماء البروتستانت ومفكريهم وأتباعهم، وأعطى لهم حق إصدار أحكام تراوحت بين مصادرة الكتب والممتلكات والنفي وحتى الإعدام نجحت المحكمة في القضاء على البروتستانت في إيطاليا نهائياً، وتمثل أنشطة محكمة التفتيش والجزويت الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية في أسوأ وأضيق معانيه، فقد استخدموا القوة والإرهاب لإعادة مكانة

---

[1] البطريق ونوار، **التاريخ الأوربي الحديث**، ص ص ١١٤، ١١٦

الكنيسة وهيبتها، وتعدى عقابها من البروتستانت إلى دعاة الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية الذين يدعون إلى إصلاح يشمل تغيير أو يدعو إلى تسامح وتفاهم مع أصحاب التيارات الأخرى. [١]

الفصل الرابع

حرب الثلاثين عاماً

(١٦١٨- ١٦٤٨)

لم يخل القرن السادس عشر منذ إعلان لوثر عن عقيدته من حروب دينية في القارة الأوربية، لكنها كانت حروب محلية بين البروتستانت الجدد وحماة العقيدة الكاثوليكية، غير أن حرب الثلاثين عاماً بدأت دينية وما لبثت أن تحولت إلى حرب سياسية، شاركت فيها معظم الدول الأوربية، وهي الحلقة الأعظم في سلسلة الحروب القارية في القارة الأوربية التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت.

❖ **أسباب تفجر الأزمة:**

١. صلح أوجسبرج ١٥٥٥ الذي نجح في وقف الصراع في الولايات الألمانية لم ينجح في وضع حد للصراع الديني، فأهمل الكلفينية، كما أهمل الحرية الدينية للأفراد ومنحها للإمارات فأعطة لكل منها حق اختيار عقيدتها، وفشل في التوفيق بين المطالب الأساسية للفريقين فالبابا طالب بحفظ أملاك الكنيسة الكاثوليكية في المناطق البروتستانتية من الاعتداء، في حين رأى البروتستانت أن لا حقوق للكنيسة الكاثوليكية في أراضيهم، كل ذلك مهد لحروب دينية جديدة.

٢. لم يقنع كلا الطرفين بما حققه من مكاسب على حساب الآخر، فحاول البروتستانت استغلال الصلح ونشر أفكارهم في المناطق الجنوبية من الولايات الألمانية، لاسيما في النمسا وبافاريا، وفي المقابل شهدت هذه المناطق نشاطا موسعا للجزويت ضد البروتستانت بدعم من البابا والإمبراطور، سواء بإعادة نشر أفكارهم عن طريق فتح مدارس وإرسال مبشرين، أو تعقب المناصرين للبروتستانت بالعقاب. ونجحوا في استعادة بعض ولايات الجنوب الألمانية.

---

[١] البطريق ونوار، **التاريخ الأوربي الحديث**، ص ص ١١٧، ١١٨

٣. تكتل البروتستانت لوثريون وكلفنيون للحفاظ على مكاسبهم ونشر مبادئهم، فأسسوا في سنة ١٦٠٨ "الاتحاد البروتستانتي" للدفاع عن مصالحهم المشتركة، وفي المقابل أسس الكاثوليك حلفا مضادا "الحلف المقدس" سنة ١٦٠٩، وقد جاء الاتحاد الكاثوليكي أقوى من نظيره البروتستانتي نظراً للخلاف بين البروتستانت (لوثريين وكالفنيين) في استخدام القوة.

٤. وفي مضمار أسباب الحرب لا يمكن إهمال الأطماع السياسية لبعض الدول مثل السويد والدانمرك، والسياسة العدائية بين الأسر الكبرى الحاكمة في فرنسا والنمسا وأسبانيا. الأمر الذي حوّل الحرب من دينية إلى سياسية عام ١٦٣٥

❖ أدوار الحرب:

أولا: الدور البوهيمي (١٦١٨– ١٦٢٥)

بدأت الحرب على أرض بوهيميا بألمانيا، وشاركت فيها الدول الأوربية بدرجات متفاوتة، لكن ظلت الأراضي الألمانية أرضا مشتركة لهذه الحرب، وكان شعب مقاطعة بوهيميا بصفة خاصة وشعب المقاطعات الألمانية بصفة عامة الأكثر خسائر فيها، فقضت الحروب على مدن بأملها وحولت حياة الفلاحين في القرى إلى بؤس واختفت أسر وقرى كاملة، وتعرضت ألمانيا إلى مجاعة كبرى. بدأت الحرب عندما حاول الإمبراطور رودولف II (١٥٧٦– ١٦١٢) يحاول توحيد ألمانيا دينيا تمهيدا للوحدة السياسية، فشل الإمبراطور في تحقيق هدفه أمام تمسك البروتستانت فأصدر لهم عهد تسامح ١٦٠٩م، لكن الإمبراطور ماتياس (١٦١٢– ١٦١٨) تجاهل عهد التسامح، فمنع مقاطعات برناو وكلسترجراب من بناء كنائس بروتستانتية، واضطهد المعارضين لسياسته من أهالي هاتين المقاطعتين.

ومع تأكد وصول فرديناند II للحكم ١٦١٨وهو موالٍ للجزويت انفجرت الثورة، فهاجم الثوار دار الحكومة وألقوا بالوزيرين المتشددين (سلافا ومارتنتز) من النافذة وخلعوا الإمبراطور، وشكلوا حكومة منهم وعرضوا منصب الإمبراطور على فردريك الخامس[1]، وبذلك استنفر الثوار الاتحاد البروتستانتي في أوربا، وفي المقابل انتفض الحلف الكاثوليكي لمناصرة الإمبراطور، وأثبتت الأحداث قصور نظر البروتستانت وعدم خبرتهم، فكراسي الحكم تبدل الأفكار ولها حسابات أخرى، لذا رأى المراقبون السياسيون آنذاك لو أن الاتحاد البروتستانتي اكتفى بقتل الوزيرين المتشددين ثم أرغم فردريك الثاني على احترام عهد التسامح لانتهت الأزمة في بوهيميا دون اندلاع حرب عامة.

لم يثبت فردريك الخامس جدارة سياسية أو عسكرية، كما تقاعس اللوثريون عن مناصرته، فانضموا إلى غريمه في ساكسونيا، فانهزم فردريك في معركة White Hill بالقرب من براغ في نوفمبر ١٦٢٠، وفر مع زوجته إلى لاهاي

---

(١) فردريك الخامس بروتستانتي كالفيني وهو ابن فردريك الرابع منتخب مقاطعة البلاتين على نهر الراين خلف أبيه سنة ١٦١٠، تزوج من إليزابث بنت ملك إنجلترا سنة ١٦١٣ وأصبح رئيسا للاتحاد البروتستانتي الذي أسسه أبوه لحماية مصالح البروتستانت، قبل عرش بوهيميا بعد تردد في نوفمبر ١٦١٩

دون أن يبذل أي جهد في جمع شتات قواته وشد أزرهم، ففر تاركا أهالي بوهيميا الذين بايعوه تحت رحمة فرديناند II ليفرض عليهم إجراءات انتقامية منها قتل النبلاء البروتستانت، ومصادرة أموالهم وأموال الثـــوار البروتستانت، واستعـــباد فلاحيهم، مصادرة أملاك فردريك الخامس، وترتب على هزيمة فردريك أنه فقد عرشه في مقاطعة البلاتين نفسها، التي أهداها الإمبراطور لناخب إقليم بافاريا رئيس الحلف الكاثوليكي مكافأة له، لتبدأ مرحلة من اضطهاد البروتستانت الكلفينيين في معقلهم الرئيسي في مقاطعة البلاتين، وبذلك انتهت هذه المرحلة من الصراع بضم الكاثوليك لبوهيميا والبلاتين الأمر الذي يعد انتصارا كبيرا للكاثوليك على حساب البروتستانت، وجاء انضمام اللوثريين للكاثوليك في معركة وايت هيل ضد الكلفينيين ضربة قاصمة للاتحاد البروتستانتي، أظهرت ما بين الفريقين (لوثريين وكالفنيين) من عداء. وسيطر اليسوعيون على التعليم.

ثانيا: الدور الدانمركي (١٦٢٥- ١٦٢٩)

أثارت الإجراءات الانتقامية للإمبراطور ضد البروتستانت ملوك أوربا، فاتخذت الحرب طوراً جديداً. كان أكثر ملوك أوربا تحمساً لمساعدة الثوار كرستيان الرابع ملك الدانمرك (لوثري) الذي استجاب لاستغاثة بروتستانت ألمانيا. بدخول الدانمرك تم تدويل الحرب وانتقل ميدانها إلى شمال ألمانيا.

اعتمد الإمبراطور إضافة إلى جيش الحلف المقدس على جيش من المرتزقة أسسه أحد أمراء بوهيميا ويدعى ولنشتين، وكان ولنشتين قد عرض فكرة تكوين هذا الجيش على الإمبراطور، على أن يقوم ولنشتين بالإنفاق على جيشه من الغنائم، فوافق الإمبراطور، نجح ولنشتين في تكوين جيشه من المرتزقة وحاز مكانة كبرى لدى هذا الجيش، وحقق بجيشه انتصارات كبرى سنة ١٦٢٦ أثبت بها كفاءته الحربية وقدراته على التنظيم والتخطيط وإدارة المعارك، انتصر جيش المرتزقة على الجيش الدانمركي وتعقبه واقتطع جزءاً من أراضيه.

ارتفع نجم ولنشتين فعزم على بناء أسطول لألمانيا في بحر الشمال مما أثار الدول الإسكندنافية وفرنسا وإنجلترا وهولندا، التي تناست خلافاتها وكونت جبهة مضادة لألمانيا من دول شمال وغرب أوربا، فاضطر ولنشتين إلى مصالحة ملك الدانمرك سنة ١٦٢٩ وأعاد له أرضه، فانسحبت الدانمرك من المعركة وتعهدت بعدم التدخل في مشاكل ألمانيا. كان جيش الإمبراطور قائم على الغنائم، فلما توقفت الحرب عاث فساداً، وزاد حقد الأمراء الألمان على ولنشتين الذي قلص نفوذهم، وفي مقدمتهم ماكسمليان ناخب بافاريا، فأرغموا الإمبراطور في مجلس الدايت على عزل ولنشتين وتوحيد الجيشين، فاستجاب الإمبراطور لضغوطهم وتخلص من رجل بلغ بألمانيا أوج عظمتها في ظروف صعبة، الأمر الذي أغرى بها أعدائها.

ثالثاً: الدور السويدي(١٦٣٠- ١٦٣٥)

انتاب ساسة فرنسا قلق شديد من جراء انتصارات آل هابسبورج في ألمانيا بما قد يحقق لهم تفوقا أوربا على البوربون، لذا قرر ريشيليو[١] أن يعمل على إيقاف انتصارات آل هابسبورج بكافة الوسائل وبشكل سري، فأغرى جوستاف أدولف Gustavo Adolph ملك السويد. [٢] الذي كرس جهوده السياسية والعسكرية من أجل تحقيق مركز ممتاز للسويد في بحر البلطيق، وحمايتها من أطماع جيرانها.

أسباب دخول السويد الحرب:

١. الصراع على بحر البلطيق بين ألمانيا وبولندا والسويد، فمع تزايد انتصارات ألمانيا زادت مخاوف السويد مـــن أن تفرض سيطرتها على البلطيق.
٢. كان جوستاف أدولف ملك السويد مؤمناً بالبروتستانتية، مخلصا لها، لذا هاله ما سمعه عن اضطهاد الإمبراطـــور للبروتستانت في ألمانيا بعد أن حقق انتصاراته على فردريك الخامس.
٣. دسائس فرنسا ضد آل هابسبورج في ألمانيا، فأغرى ريشيليو جوستاف أدولف ملك السويد بمهاجمة الإمبراطـــور لوقف انتصارات الكاثوليك، وتحقيق أطماع بلاده في السيطرة على البلطيق، وأمده بالمال والسلاح.

بدأت الحرب في يونيو ١٦٣٠ باحتلال السويد للساحل الشمالي لألمانيا مستنفراً بروتستانت ألمانيا المضطهدين، حقق جوستاف أدولف انتصاراً في سبتمبر ١٦٣١ في إقليم ساكسونيا وطارد الكاثوليك حتى نهر الدانوب، فأصبح الطريق مفتوحا أمامه إلى براغ عاصمة إقليم بوهيميا، التي وقعت من قبل في يد السكسون، أدرك الإمبراطور خطورة الموقف فقرر استدعاء ولنشتين، فعاد بشرط الولاية الكاملة على الجيش، ولم يكن أمام الإمبراطور خيارا سوى القبول.

استعاد ولنشتين بوهيما فألحق أول هزيمة على الأراضي الألمانية بالقائد الفذ في سنة ١٦٣٢، لكن جيش جوستاف سرعان ما استرد كرامته وثأر لنفسه بهزيمة الجيش الألماني بعد بضعة أشهر في العام ذاته، لكن السويديين فقدوا ملكهم جوستاف أدولف في المعركة على الرغم من انتصارهم، وعلى المستوى السياسي خلفته ابنته أما على المستوى العسكري لم يجدوا من يخلفه، فمن الصعب أن يجود الزمن بمثله، فكان موته بداية النهاية للوجود السويدي في أرض ألمانيا.

---

(١) ريشيليو: كاردينال فرنسي حاز مكانة سياسية كبيرة بدأت حياته السياسية بعد أن نجح في توسطه للصلح بين الملك لويس الثالث عشر وأمه فكسب ثقة الملكة الأم، دخل ريشيليو الوزارة سنة ١٦٢٤ ثم أصبح رئيسا لمجلس الملك، وغدت له الكلمة الأولى في فرنسا، فخطط لتقوية السلطة الملكية داخل فرنسا على حساب الأمراء، كما خطط لتحقيق تفوق فرنسي على الساحة الأوربية على حساب أسبانيا والحد من سلطة آل هابسبورج في ألمانيا وأسبانيا. عبد الفتاح أبو عليه وإسماعيل ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ص ١٧٧

(٢) كان جوستاف أدولف ملكا عالما مثقفا يجيد أربعة لغات إضافة إلى لغة بلده، كان عسكريا من الطراز الأول، يجيد فنون القتال وتنظيم الجيوش وقيادتها، وكان متقد النشاط حيويا ذكيا، كما كان بروتستانتيا مخلصا لعقيدته، وطنيا يحب بلده حبا جما، وسياسيا يجيد التعامل مع غيره من الملوك ببساطة، وكان مستقيما ذا خلق رفيع. زينب راشد، تاريخ أوربا الحديث، ج١، ص ٢٥٨

استراح المعسكر الكاثوليكي بموت ملك السويد قائد القوات البروتستانتية في ميدان المعركة وأيقنوا أن النصر حليفهم، فانشغل ولنشتين بتأمين مستقبله السياسي، وحصاد نتاج خدماته للإمبراطور. وعلى الجانب الآخر رأى الإمبراطور أن ولنشتين قد انتهى دوره العسكري، ولم تعد الأوضاع العسكرية تحتاج إليه، وأن وجوده أصبح يشكل تهديدا سياسيا، فلم يعد سهل القياد إذ بدأ يتجاهل أوامر الإمبراطور ففاوض الفرنسيين والسويديين من تلقاء نفسه، لذا قرر الإمبراطور التخلص منه إلى الأبد، فتآمر عليه وقتله عام ١٦٣٤.

أصبح جيش ولنشتين خاضعا للإمبراطور فتمكن من هزيمة السويد وإخراجها من أراضيها في سبتمبر ١٦٣٤م، ثم دخل في مواجهة مع البروتستانت الألمان فلحقت به هزيمة في نوردلنجن لكنه عاد وحقق عليهم انتصارا في برتنفيلد، وبدا أن الحرب ستكون سجالا ففضل الإمبراطور أن يعقد صلحا في براغ سنة ١٦٣٥ يعيد به الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل اشتعال الحرب في بوهيميا، ليحتفظ البروتستانت بحقهم في إقامة شعائرهم الدينية وامتلاك الأراضي، وأن يحتفظوا بالأراضي التي استولوا عليها من أملاك الكنيسة الكاثوليكية منذ نصف قرن.

رابعاً: الدور الفرنسي- السويدي (١٦٣٥- ١٦٤٨)

بمقتل ملك السويد وإعادة الألمان سيطرتهم على بلادهم، عادت مخاوف الفرنسيين إلى نقطة ما قبل الدور السويدي، وتبددت أحلامهم في إضعاف آل هابسبورج وتحقيق مكاسب أرضية وسياسية على حسابهم، ولم يجد ريشيليوا بداً هذه المرة من دخول الحرب بنفسه، بعد أن فشل في إيجاد من يدخلها نيابة عنه، وتكمن أسباب الحرب في هذا الدور في تصاعد نجم ألمانيا نتيجة انتصارها على السويد وتصالحها مع البروتستانت واستعادة الإمبراطور لزمام الأمور على أرضه، فرأت دول الجوار فرنسا والسويد وهولندا في ذلك خطرا عليهم فقرروا التحالف ضد آل هابسبورج.

واصطبغ هذا الدور من الحرب بصبغة سياسية فالفرنسيين الكاثوليك وضعوا أيديهم في يد كل من السويد وهولندا البروتستانتيتين، وقرروا الدخول في حرب آل هابسبورج الذين يرفعون شعار الكاثوليكية في النمسا ويضمون بروتستانت في ألمانيا، ففقدت الحرب بذلك ملمحها الديني الذي لم يعد فهذه المرحلة يمثل حدا فاصلا بين المتحاربين، كما امتاز هذا الدور بتدويل الحرب بشكل أكبر فنجحت فرنسا في جر دول الجوار وتحديدا السويد وهولندا إلى الحرب، لتحقيق أغراض سياسية خاصة بها، تمثلت في تحقيق تفوق فرنسي في القارة الأوربية على حساب آل هابسبورج.

أخذت المعارك أطوارا عدة، لكنها دارت كلها على أرض ألمانيا، وحقق السويديون انتصارات كبيرة واستولوا على عدة مقاطعات أهمها براندنبرج وسكسونيا، وإذا كانت ألمانيا قد تمكنت من تحقيق عدة انتصارات وصد الهجوم الفرنسي في أكثر من موقع في عهد الإمبراطور فرديناند الثاني فقد انقلبت الدفة بعد وفاته وتولي ابنه فرديناند III فاستولى الفرنسيون على الإلزاس واللورين، وإذا كان ريشيليو الذي أوقد نار حرب الثلاثين عاما قد وافته المنية ولحق به الملك لويس الثالث عشر في أواخر عام ١٦٤٢ فإن العهد الجديد بقيادة الوزير مزران والملك لويس الرابع عشر، قد سار على النهج ذاته. استمرت المعارك من ١٦٤٣– ١٦٤٨ سجالا لم تغير من الأمر شيئاً، ولكن في سنة ١٦٤٨ لقي الإمبراطور الألماني هزيمة جعلته يميل إلى الصلح.

❖ معاهدة وستفاليا ١٦٤٨

وضعت معاهدة وستفاليا أساساً للعلاقات الدولية الأوربية لمدى يزيد على قرن ونصف، حتى قيام الثورة الفرنسية، وأهم ما تضمنته المعاهدة:

أولاً: التسوية السياسية:

أ –داخل ألمانيا:

فقدت ألمانيا نتيجة حرب الثلاثين عاما ما يقرب من ثلثي سكانها، كما أتت على المزارع الخضراء، ونفقت أعداد كبيرة من الماشية في الولايات التي كانت ميدانا للحرب، فكان لها أثرها السلبي على الحياة الاقتصادية. قضت المعاهدة على الوحدة الألمانية القوية، وقوت الأمراء الألمان فتشكل اتحاد كونفيدرالي من ٣٥٠ ولاية، وأصبح للأمراء حق عقد المعاهدات وتكوين جيوش، واستقلت سكسونيا وباڤاريا واقتصر نفوذ آل هابسبورج على المقاطعات الوراثية، أما باقي المقاطعات فلم يعد لهم فيها سوى سلطة أسمية، وأصبحت بروسيا أقوى المقاطعات بعد النمسا.

ب– على مستوى الدول المجاورة:

حصلت السويد على أجزاء من شمالي ألمانيا، فسيطرت على بريمن Bremen وڤيردن Verden وپوميرانيا الغربيةWestern Pomerania وتنازلت عن الجزء الشرقي من پوميرانيا لبراندنبرج التي نالت استقلالها، فسيطرت السويد بذلك على نهري الإلب والويزر، فأحكمت قبضتها على بحر البلطيق، وغدا لها حق الجلوس في الدايت الألماني.

حصلت فرنسا على الإلزاس واللورين عدا ستراسبورج، وانفصلت أسقفيات تول ومتز وڤردان عن الإمبراطورية وانضموا لفرنسا. واعترف الصلح بحق سويسرا في الاستقلال وهي منفصلة فعليا دون اعتراف منذ القرن الثالث عشر الميلادي، كما اعترف الصلح بفصل هولندا واستقلالها.

ثانياً: التسوية الدينية:

أكد الصلح حق المقاطعات البروتستانتية (لوثرية وكالفينية) في ممارسة مذهبها بحرية، فكان بمثابة شهادة ميلاد شرعية للمذهب الجديد، وأنهى الصراع الديني داخل ألمانيا تحديدا، فأصبح للعقيدة الجديدة مكانا إلى جانب العقيدة الكاثوليكية. تمسك الصلح بمبدأ قديم يعطي لحاكم الإقليم – وليس السكان– حق اختيار المذهب، لكن بصفة عامة أصبح شمال ألمانيا بروتستانتيا على مذهبي لوثر وكالفن، وبقي جنوب ألمانيا وغربها كاثوليكيا. كما قرر الصلح إعادة ما سلب من الكنيسة البروتستانتية من أملاك أثناء حرب الثلاثين عاماً، وأن يحتفظ البروتستانت بما تحت أيديهم من أملاك الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك أرسى الاتفاق مبدأ التسامح الديني في ألمانيا، فلم يعد هناك مكان لمحاكم التفتيش وجماعات العنف الديني. وأصبح المجلس الإمبراطوري يتألف من عدد متساوٍ من البروتستانت والكاثوليك.

ثالثاً: أثر الصلح على موازين القوى

أضحت فرنسا أكبر وأقوى دول أوربا في جانبها القاري، بعد إضعاف التحالف النمساوي – الأسباني، وتعرض الاتحاد الألماني لخسائر باهظة في الأرواح والاقتصاد، الأمر الذي أدى إلى تأخير قيام الدولة الألمانية ما يربو على قرنين من الزمان، ويمثل هذا الصلح بداية ضعف أسبانيا التي دخلت مرحلة الضعف حتى نهاية ق ١٧ بسبب ديون الحرب وتناقص الموارد والحركات الانفصالية في المستعمرات، حصلت هولندا على اعتراف دولي بالانفصال عن أسبانيا، فتحولت إلى سوق دولية كبرى

الفصل الخامس

أوربا في القرن الثامن عشر

– خريطة أوربا في مطلع القرن الثامن عشر

أ– ظهور روسيا دولة أوربية عظمي:

ارتبط ظهور روسيا بوصفها دولة عظمي علي الخريطة الأوربية مع بداية القرن الثامن عشر، علي يد إمبراطورها بطرس الأول وقد ارتبط ظهورها بأفول نجم السويد التي حازت مكانه تزيد علي إمكاناتها الطبيعية ومواردها وذلك بفضل جيشها القوي ومواردها البشرية وحتى مطلع القرن الثامن كانت روسيا دولة ذات طابع أسيوي تكبلها أغلال الطبيعة القاسية حيث تتجمد موانيها معظم شهور السنة فكأن عليها أن تتوسع غرباً وجنوباً نحو البلطيق والبحر الأسود لتصبح دولة عظمي وهي الخطوة التي قام بها القيصر بطرس الأول (١٦٨٢ – ١٧٢٥م) الذي قام أن عمله هو تحويل رعاياه من وحوش إلى آدميين.

كانت روسيا قبل بطرس الأول تعيش حياة أسيوية متأخرة في شتي نواحي الحياة، حتى تمكن بطرس من التغلب علي الفئات المسيطرة علي العرش وانفراد بالحكم، فقد تولي بطرس الحكم خلفاً لوالده وهو طفل بينما تركزت مقاليد السلطة الفعلية في يد أخته صوفيا بمساعدة الحرس الخاص واستمر هذا الوضع حتى تمكن بطرس من التخلص من أخته بعد فشلها في الحرب مع الأتراك عام ١٦٨٩ وانفراد بالحكم وأرسل أخته إلى الدير.

بدأ بطرس سياسته بتحديث الجيش علي النمط الأوروبي مستعيناً في ذلك بضابط اسكتلندي فأدخل أسلحة حديثة، كما أنشأ أسطولاً ليكمل قوته الضاربة وسخر بطرس كل إمكاناته وإصلاحاته لخدمة الجيش ليضمن لبلاده الدفاع وضم رجال من كل الطبقات في الجيش وصارت الترقية وفقاً للكفاءة كما استخدم الجيش للحفاظ علي الأمن الداخلي والضرب علي أيدي الخارجين.

وكان بطرس قد قام في عام ١٦٩٧ برحلة عبر دولة أوربا بروسيا وهولندا وانجلترا وأطلع خلالها علي الحضارة الأوربية واستقدم لبلاده خلال هذه الرحلة مجموعة من خيرة خبراء أوربا، للأخذ بيد روسيا إلى ركب الحضارة الأوربية ووفر لهم كل الإمكانات ولم تكن الأرض في روسيا ممهدة تمأما لتقبل الإصلاحات الجديدة، حيث

وقف في وجه الإصلاح معارضون علي أهم الإصلاحات والنظم الجديدة إضافة إلى تمسك الشعب الروسي بعادات وتقاليد أجداده وغيرته من الأجانب، وموقف الكنيسة غير المرحب بالإصلاحات الجديدة.

وجرت محاولة لطرد الأجانب وعزل بطرس وتعيين أبنه Alexis وتركيز السلطة في يد صوفيا مرة أخرى، وذلك أثناء زيارة القيصر لأوربا، غير أن الجيش تمكن من السيطرة علي الموقف قبل عودة القيصر وعندما عاد بطرس من أوربا صب جام غضبه علي مدبري الانقلاب وحل الحرس وأخلي السبيل تمأما أمام الإصلاحات وأرغم شعبه علي التقاليد الأوربية، ففتح المؤسسات لتعليم الشعب هذه العادات، ومنع إطلاق النبلاء لحاهم متحدياً الكنيسة، ومنع لبس الرداء للعامل والفلاح حتى لا يعوقه عن العمل.

أولى بطرس المرأة اهتماما خاصاً علي اعتبار أنها المسئولة عن غرس العادات والتقاليد في الأبناء، فحور المرأة من التقاليد الشرقية التي تقضي بعزلتها عن اجتماعات الرجال، ودعاها لحفلات البلاط. وبني بطرس مدينة سان بطرسبرج لتكون حلقة اتصال مع الغرب، وجعل تعليم الأطفال إجبارياً لأبناء النبلاء، وأجبرهم علي إكمال تعليم أبنائهم في الخارج، وأمر بوضع أبجدية مبسطة للحروف الروسية وأنشأ أكاديمية روسية للعلوم علي النمط الأوروبي وفي المجال السياسي ألغي مجلس العظماء والأعيان Duma بنفوذه القوي واستبدله بمجلس الشيوخ من أهم وزراء القصر.

وفيما يتعلق بإصلاح الكنيسة ترك منصب البطريرك الروسي خاليا، لما له من نفوذ يوازي نفوذ القصر، وظل هذا الوضع من عام ١٧٠٠ -١٧٢١م عندما ألغي بطرس هذه الوظيفة وأنشأ مكأنها مجلساً مقدساً Holy Synod يتولى شئون الكنيسة تحت إشراف البلاط، وأبعد هذا المجلس عن السياسة، ووضع أملاك الكنيسة تحت الإشراف الإداري للدولة، وامتد التسامح ليشمل جميع الطوائف غير الأرثوذكسية، فيما عدا اليهود. كما نجح بطرس في توسيع الرقعة الزراعية، وأنشأ المصانع، فزادت طبقة العمال واستعأن بالخبرات الأوربية وسخر بطرس اللقطاء واللصوص والمجرمين ومدمني الخمر في المشروعات الخاصة للاستفادة من طاقتهم واستفادت طبقة التجار التي لا تزيد علي ٣% من الأوضاع الجديدة. وأهتم بالمشروعات الصناعية خاصة صناعة المنسوجات والحديد وجعل معظمها في يد الحكومة وسمح بإقامة المشروعات الخاصة تحت رقابة الحكومة.

غير أن هذه المشروعات كلها كانت لخدمة الجيش فاستنزفت كثيراً من الأموال، الأمر الذي أدي إلى زيادة الضرائب، ولم ينجح بطرس في التصدي لفساد الإدارة والرشوة بين الموظفين.

بدأ بطرس سياسته الخارجية بإعلان الحرب علي الدولة العثمانية عام ١٦٩٥م، فحاصر قلاع بحر أزوف حتى سلمت له، فوصلت حدود روسيا إلى البحر الأسود. وعزز وجوده في هذه المنطقة بتوثيق علاقاته مع دولة أوربا، فأرسل سفارة كبري تضم كبار مستشاريه إلى الدولة الأوربية الكبرى.

انتقل بطرس إلى الجبهة الغربية في محاولة للوصول إلى بحر البلطيق، وهنا اصطدم بمصالح السويد، القوة الكبرى في المنطقة التي وصل نفوذها إلى استراليا وفنلندا، وأضحي بحر البلطيق بحيرة سويدية. تلاقت مصالح القيصر الروس مع مصالح الملك البولندي أوغسطس Augustus فعقدا معاهدة تحالف للتصدي للأطماع السويدية في المنطقة وانضم إليها حليفاً ثالث هو فردريك الرابع ملك الدانمرك، غير أن تشارلز XII ملك السويد (١٦٩٧ – ١٧١٨) لم يسمح بقيام هذا التحالف فسرعأن ما انقض علي الدانمرك فأجبر ملكها علي الانسحاب من الحلف الثلاثي، ولم ينفذ الدانمرك من براثن تشارلز سوي تدخل انجلترا وهولندا، ثم تفرغت السويد لروسيا فألحقت بقواتها هزيمة ساحقة في نارفا انسحبت القوات الروسية واستفاد بطرس من هزيمته بينما ظن تشارلز أن قواته لا تقهر فأمهل فريسته.

كان من الممكن أن ينقض تشارلز علي عدوه فيقضي عليها، غير أنه فضل أن يحقق انتصاراً في بولندا أولا وكأن الخلاف قائماً بين ملك بولندا ونبلائها، الأمر الذي سهل مهمة تشارلز فدخل وارسو وأوحي إلى نبلائها بعزل أوغسطس، لم يكن في مقدور أوغسطس أن يتحالف مع دول وسط أوربا حتى لا يتحالف تشارلز مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا فلم يعد أمامه سوي الارتماء في أحضأن القيصر الروسي، الذي أعاد تنظيم الجيش وتعويض خسائره وتدريب أفراده.

بدأ تشارلز زحفه نحو موسكو في عام ١٧٠٨م وظل الروس ينسحبون امام عدوهم دون اشتباك وفي صيف ١٧٠٩ حدثت المعركة الفاصلة في جنوبي روسيا وفيها أنهزم جيش السويد، وأسر ثلثيه واندثر الباقي في الأرض الروسية، وفر تشارلز بنفسه إلى الدولة العثمانية حيث استقبله الأتراك بالترحاب وأصبحت روسيا دولة بكري وسط الدول الأوربية، عاد الحلف الثلاثي بين بطرس وأوغسطس وفردريك إلى الظهور مرة أخرى وتمكن بطرس من الوصول بممتلكاته إلى البلطيق وهناك أخذ في بناء مدينة سأن بطرسبرج St. Petersburg ونقل إليها عاصمته سنة١٧١٢م، وأخذ في تكوين أسطول في ذلك البحر ليمارس نفوذه في المنطقة كدولة أوربية عظمي.

فر ملك السويد إلى الدولة العثمانية وأخذ يحرضها علي إعلان الحرب علي روسيا، حتى قبل السلطان العثماني وأعلن الحرب، رغم المحاولات الدبلوماسية من جانب بطرس لوقف هذه الحرب اضطر بطرس إلى الحرب مع الدولة العثمانية اضطراراً وتعرض لموقف صعب كاد يؤدي بجيشه لكنه اثر الصلح وتنازل للدولة العثمانية عن آزوف مرة أخرى في يوليو سنة ١٧١١م بقي تشارلز في الأستانة محاولا تجديد الحرب مرة أخرى ولكنه بلهوه سبب مضايقات

كثيرة للسلطان الذي اضطره للرحيل بالقوة سنة ١٧١٤ م عاد تشارلز إلى بلاده فوجد الأوضاع متردية، حاول إصلاحها بالتآمر تارة وبالتحالف مع القيصر تارة أخرى دون جدوى، وانتهي الأمر بمقتله سنة ١٧١٨م وبموته ينتهي الوجود السويدي في أوربا وتنكمش السويد إلى حدودها الطبيعية.

حل النفوذ الروسي محل النفوذ السويدي في شمال أوربا، فاتسعت أملاك قيصر روسيا، وفي عام ١٧١٦م انضمت بروسيا إلى روسيا، الأمر الذي يمثل خطراً حقيقياً علي فرنسا. وهذا ما أدي إلى تغير السياسة الإنجليزية في أوربا فاتجهت إلى التحالف مع فرنسا لمواجهة أية أخطار محتملة من جانب روسيا فعقدت اتفاقية بين الطرفين في يناير عام ١٧١٧م انضمت إليها هولندا ثم اتجه بطرس إلى الشق فشن حربا ضد دولة فارس التي كانت في طور الانحلال واستطاع علي أثر هذه الحرب من ضم جزء من الساحل الغربي لبحر قزوين بما في ذلك مدينة باكو.

ب- حروب الوراثة الأسبانية:

مع نهاية القرن السابع عشر أصبحت مسألة الوراثة الأسبانية في مقدمة المشاكل التي تشغل بال ساسة أوربا، فشارل الثاني وهو ينتمي إلى الفرع الاسباني من أسرة الهابسبورج ملك أسبانيا كان مريضاً مختل العقل، ولم ينجب وريثاً لأملاكه المترامية في أوربا وغيرها ففي أوربا تمثلت ممتلكاته في أسبانيا وايطاليا والأراضي المنخفضة وفيما وراء البحار تمثلت ممتلكاته في جزر كناري والفلبين وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنما، ومعظم أمريكا الجنوبية، فيما عدا البرازيل البرتغالية وجيانا الفرنسية كل هذه الظروف إضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية والإدارية هناك أدت إلى تفكير الدول الأوربية شكل جدي في مستقبل هذه التركة.

وينحصر المطالبون بعرش أسبانيا في لويس الرابع عشر ملك فرنسا وفرع عائلة الهابسبورج في النمسا وأمير بافاريا وأقوي المرشحين لهذا العرش حفيد لويس الرابع عشر، علي اعتبار أن الأخير هو حفيد فيليب الثالث ملك أسبانيا الأسبق وزوج ابنه فيليب الرابع، غير أن هذا الأمر يعني احتمالية الاتحاد بين ممتلكات ملك فرسنا وممتلكات حفيده، الأمر الذي يضر بمصالح إنجلترا وهولندا كما أن هذا التهديد يبقي قائماً في حالة أن يؤول عرش أسبانيا لآل هابسبورج في النمسا، مما دفع كل من إنجلترا وهولندا إلى تحديد الأمر مع ملك فرنسا والاتفاق معه في عام ١٧٠٠م بشأن هذه المعركة.

لم يطل المقام بشارل الثاني فتوفي في نوفمبر سنة ١٧٠٠م بعد أن أوصي بأن يخلفه في عرش الإمبراطورية الأسبانية حفيد لويس الرابع عشر، مما شجع الأخير علي إلغاء اتفاقه مع إنجلترا وهولندا، معترفاً بحفيده ملكاً علي أسبانيا باسم فيليب الخامس، الذي أعلن ملكاً في بروكسل وفي ميلان ونابولي أيضاً. واعترفت انجلترا وفرنسا به

وكأن من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد ويستقيم الأمر لفيليب الخامس في أسبانيا لولا أن لويس الرابع عشر أعلن حق فيليب في وراثة عرش فرنسا من بعده الأمر الذي يهدد مصالح إنجلترا وهولندا، ويمثل تهديداً للدول الأوربية، واتفقت انجلترا وهولندا علي فصل فرنسا عن أسبانيا وإعطاء الممتلكات الأسبانية في الأرض المنخفضة وايطاليا لفرع أسرة الهابسبورج النمساوي.

اشتعلت الحروب في أوربا بسبب الخلاف علي مصير ممتلكات أسبانيا، وعرفت بحروب الوراثة الأسبانية Spanish succession واستمرت حتى عام ١٩١٣واتسع ميدان هذه الحرب لتشمل كل الممتلكات الأسبانية، بما فيها الممتلكات الموجودة في الأمريكتين وإبأن هذه الحرب تمكن الإنجليز من فرض سيطرتهم علي صخرة جبل طارق سنة ١٧٠٤م لأهميتها الإستراتيجية ولم تنجح إنجلترا في القضاء علي فرنسا رغم سوء الأحوال الاقتصادية والإدارية بها وتقدم السن بملكها وبموت إمبراطور النمسا في عام ١٧١١م تنقلب التحالفات رأسا علي عقب، فالاتحاد تحت راية الإمبراطور الجديد لا يقل خطورة عن اتحاد أسبانيا مع فرنسا الأمر الذي فتح طريق الصلح أمام الجميع.

في عام ١٧١٢ افتتح مؤتمر دولي في أوترخت Utrecht وفيه تعارضت مصالح الدول المتحالفة ضد فرنسا لكن المؤتمر أسفر عن عقد معاهدة صلح منفصل في عام ١٧١٣م عرفت باسم صلح أوترخت حيث تم الاتفاق علي الاعتراف بملكية فيليب الخامس علي أسبانيا علي أن تفصل أسبانيا عن فرنسا فصلاً تأما وتم تسوية النزاع الانجلو فرنسي في العالم الجديد فتسلم فرنسا لانجلترا جزر نيوفوندلاند ونوفاسكوشيا ومنطقة خليج هدسن، وتحتفظ فرنسا بكويبك وتسلم أسبانيا جبل طارق ومنيورقه لإنجلترا أما الأراضي المنخفضة فتسلم لهولندا، تمهيداً لتسليمها إلى النمسا.

كما تم الاعتراف بمملكة روسيا مع توسيع حدودها. وآلت جزيرة صقلية إلى دوق سافوي الذي أصبح ملكاً بعد ذلك، أما جزيرة سردينيا وبعض ممتلكات أسبانيا في إيطاليا فقد آلت إلى الإمبراطور النمساوي.

هكذا أخرجت إنجلترا من صلح أوترخت بنصيب الأسد سواء من أملاك فرنسا في العالم الجديد أو من ممتلكات أسبانيا في أوربا وأهمها صخرة جبل طارق، كما عقدت مع أسبانيا اتفاقية في عام ١٧١٥م حصلت بمقتضاها علي العديد من الامتيازات التجارية، وأهمها حق تصدير الرقيق الأفريقي إلى ممتلكات التاج الأسباني في الأمريكتين أما فرنسا فقد خرجت من حروب الوراثة الأسبانية منهمكة القوة، وفقدت العديد من مستعمراتها، كما فشلت في توحيد أسبانيا معها وتكوين ملكية ديكتاتورية تسيطر علي أوربا ويكاد يكون الصراع بين عائلتي البربون والهابسبورج قد انتهي. وظهرت بروسيا علي الخريطة الأوربية أما أسبانيا فقد خسرت الكثير من ممتلكاتها.

مع نهاية القرن السابع عشر أصبحت مسألة الوراثة الاسبانية في مقدمة المشاكل التي تشغل بـال ساسـة أوربـا فشارل الثاني وهو ينتمي إلى الفرع الاسباني من أسرة الهابسبورج ملك أسبانيا كان مريضاً مختل العقل، ولم ينجـب وريثاً لأملاكه المترامية في أوربا وغيرها ففي أوربا تمثلت ممتلكاته في أسبانيا وإيطاليا والأراضي المنخفضة وفيا وراء البحار تمثلت ممتلكاته في جزر كناري والفلبين وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنمـا ومعظـم أمريكـا الجنوبية فيما عدا البرازيل البرتغالية وجيانا الفرنسية كل هذه الظروف إضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية والإدارية هناك أدت إلى تفكير الدول الأوربية شكل جدي في مستقبل هذه التركة.

وينحصر المطالبون بعرش أسبانيا في لويس الرابع عشر ملك فرنسا وفرع عائلة الهابسبورج في النمسـا وأميـر بافاريا واقوي المرشحين لهذا العرش هو دوق أنحو حفيد لويس الرابع عشر، علي اعتبار أن الأخير هو حفيد فيليـب الثالث ملك أسبانيا الأسبق وزوج ابنه فيليب الرابع، غير أن هذا الأمر يعني احتمالية الاتحاد بين ممتلكات ملك فرنسا وممتلكات حفيدة، الأمر الذي يضر بمصالح إنجلترا وهولندا كما أن هذا التهديد يبقي قائماً في حالة أن يؤول عـرش أسبانيا لآل هابسبورج في النمسا، مما دفع كل من إنجلترا وهولندا إلى تحديد الأمر مع ملك فرنسا والاتفاق معه فـي عام ١٧٠٠م بشأن هذه المعركة.

لم يطل المقام بشارل الثاني فتوقف في نوفمبر سنة ١٧٠٠م بعد أن أوصي بأن يخلفه في عـرش الإمبراطوريـة الأسبانية حفيد لويس الرابع عشر مما شجع الأخير علي إلغاء اتفاقه مع انجلترا وهولندا معترفاً بحفيده ملكاً علي أسبانيا باسم فيليب الخامس الذي أعلن ملكاً في بروكسل وفي ميلأن ونابولي أيضاً واعترفت انجلترا وفرنسا به وكـأن مـن الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد، ويستقيم الأمر لفيليب الخامس في أسبانيا، لولا أن لويس الرابع عشر أعلن حق فيليب في وراثة عرش فرنسا من بعده الأمر الذي يهدد مصالح إنجلترا وهولندا ويمثل تهديداً للدولة الأوربية واتفقـت انجلترا وهولندا علي فصل فرنسا عن أسبانيا، وإعطاء الممتلكات الأسبانية في الأرض المنخفضة وإيطاليا لفرع أسرة الهابسبورج النمساوي .

اشتعلت الحروب في أوربا بسب الخلاف علي مصير ممتلكات أسبانيا، وعرفـت بحـروب الوراثـة الأسـبانية Spanish succession war واستمرت حتى عام ١٩١٣م واتسع ميدان هذه الحرب لتشمل كل الممتلكات الاسبانية، بما فيها الممتلكات الموجودة في الأمريكتين وإبان هذه الحرب تمكن الإنجليز من فرض سيطرتهم علي صخرة جبـل طارق سنة ١٧٠٤م لأهميتها الإستراتيجية ولم تنجح إنجلترا في القضاء علي فرنسا، رغم سوء الأحوال الاقتصـادية والإدارية بها وتقدم السن بملكها وبموت إمبراطور النمسا في عام ١٧١١م تتقلب التحالفات رأسا علي عقب، فالاتحاد تحت راية الإمبراطور الجديد لا يقل خطورة عن اتحاد أسبانيا مع فرنسا. الأمر الذي فتح طريق الصلح أمام الجميع.

في عام ١٧١٢ افتتح مؤتمر دولي في أوترخت Utrecht وفيه تعارضت مصالح الدولة المتحالفة ضد فرنسا. لكن المؤتمر أسفر عن عقد معاهدة صلح منفصل في عام ١٧١٣م عرفت باسم صلح أوترخت، حيث تم الاتفاق علي الاعتراف بملكية فيليب الخامس علي أسبانيا، علي أن تفصل أسبانيا عن فرنسا فصلاً تأما وتم تسوية النزاع الأنجلو فرنسي في العالم الجديد، فتسلم فرنسا لإنجلترا جزر نيوفوندلاند ونوفاسكوشيا ومنطقة خليج هدسن، وتحتفظ فرنسا بكويبك وتسلم أسبانيا جبل طارق ومنيورقة لإنجلترا أما الأراضي المنخفضة فتسلم لهولندا، تمهيداً لتسليمها إلى النمسا.

كما تم الاعتراف بمملكة روسيا مع توسيع حدودها. وآلت جزيرة صقلية إلى دوق سافوي الذي أصبح ملكاً بعد ذلك، أما جزيرة سردينيا وبعض ممتلكات أسبانيا في إيطاليا فقد آلت إلى الإمبراطور النمساوي. هكذا أخرجت إنجلترا من صلح أوترخت بنصيب الأسد سواء من أملاك فرنسا في العالم الجديد أو من ممتلكات أسبانيا في أوربا وأهمها صخرة جبل طارق، كما عقدت مع أسبانيا اتفاقية في عام ١٧١٥م حصلت بمقتضاها علي العديد من الامتيازات التجارية وأهمهاحق تصدير الرقيق الأفريقي إلى ممتلكات التاج الأسباني في الأمريكتين . أما فرنسا فقد خرجت من حروب الوراثة الأسبانية منهمكة القوة، وفقدت العديد من مستعمراتها، كما فشلت في توحيد أسبانيا معها وتكوين ملكة ديكتاتورية تسيطر علي أوربا ويكاد يكون الصراع بين عائلتي البربون والهابسبورج قد انتهي. وظهرت بروسيا علي الخريطة الأوربية أما أسبانيا فقد خسرت الكثير من ممتلكاتها.

وفي عام ١٧١٧م عقد تحالف ثلاثي بين إنجلترا وفرنسا وهولندا للحفاظ علي حالة السلم في أوربا عقب صلح أوترخت، وعندما حاولت أسبانيا استرداد بعض ممتلكاتها في إيطاليا من الإمبراطور النمساوي لاذ الإمبراطور بالحلف الثلاثي فأصبح حلفاً رباعياً فلي عام ١٧١٨م ولما حاولت أسبانيا التحالف مع روسيا والسويد لتهديد عرش إنجلترا، عزمت دول الحلف علي توجيه ضربة لها ولم يوقف زحف الجيوش الفرنسية نحو أسبانيا سوي إعلان ملكها فيليب الخامس عزل مستشاره البيروني، وانضمامه للحلف الرباعي ليكون خماسياً ولم يطرأ علي شروط أوترخت أية تعديلات إلا الاستجابة لرغبة الإمبراطور في الحصول علي صقلية بدلا من سردينيا التي آلت إلى ملك سافوي في عام ١٧٢٠م .

فبراير ١٧٤٢م اشتبك مع القوات الفرنسية وألحق بها هزيمة ساحقة في يونيو ١٧٤٣م، خرج علي أثرها الجيش الفرنسي من بافاريا وفر الإمبراطور شارل السابع إلى فرانكفورت . وتشكل تحالف انجلترا نمساوي سرديني. في سبتمبر ١٧٤٣م مقابل وعد سردينيا بلمبارديا في ايطاليا. كما عقدت النمسا معاهدة دفاعية مع سكسونيا في ديسمبر ١٧٤٣م ولاشك أن هذا النجاح لماريا تريزا يجعلها تطلع إلى سيليزيا التي سلبت منها تحت ضغط الأمر الذي جعل

فردريك يتوحش خيفة. أسفر قلق فردريك الثاني ملك بروسيا عن تكوين حلف من بعض الولايات الألمانية مثل ناخب البلاتين وأمير هيس، كاسل وشارل السابع، للدفاع عن المصالح الألمانية ضد النمسا، وانضمت فرنسا مرة أخرى إلى فردريك (يونيو ١٧٤٤م) بهدف إرجاع بافاريا إلى شارل السابع وتمكن فردريك من إلحاق عدة هزائم بالجيش النمساوي السكسوني في سياليزيا وبوهيميا في النصف الثاني من عام ١٧٤٥م حتى تضطر النمسا إلى عقد معاهدة درسدن Dersden معه في ديسمبر ١٧٤٥م لتؤكد احتفاظ فردريك بسيليزيا، مقابل اعتراف فردريك بزجماريا تريزا (فرنسيس الأول) إمبراطور. وآنذاك مات الإمبراطور شارل السابع، وعقد ابنه اتفاقيه مع النمسا أعيدت لبافاريا مكانتها القديمة مقابل اعترافه بفرنسيس زوج ماريا تريزا إمبراطوراً. وبالفعلتم انتخابه إمبراطوراً في سبتمبر ١٧٤٦م.

استمرت الحروب الذيلية فترة طويلة بعد معاهدة درسدن في أنحاء متفرقة من أوربا، ففي الأراضي المنخفضة استمرت الحرب بين النمسا. ثم تعقد اليزابث قيصرة بروسيا معاهدة دفاعية مع النمسا (مايو ١٧٤٧م) وينتهي الأمر بالدول المتحاربة إلى عقد صلح اكس لاشابل Aix-la- Chapelle (أكتوبر ١٧٤٨م) بعد موت الملك الأسباني، ورغبة خليفته في السلم ورغبة إنجلترا في السلم أيضاً وكأن الأساس الذي قام عليه الصلح لتسوية منازعات القارة الأوربية هو إعادة أوربا إلى ما كانت عليه قبل الحرب مع تعديلات بسيطة تمثلت فيما يلي:

منح دوقيات بارما وبياسنزا لفيليب الأسباني، ومنح ملك سردينيا سافوي ونيس وأجزاء من لمباردي وتأكيد امتلاك بروسيا لسيليزيا – غرم رفض فردريك لمضمون اتفاقيات الصلح في مجملها كما نص الصلح علي اعتراف فرنسا وأسبانيا بفرانسيس الأول إمبراطوراً وتعود الأملاك الفرنسية والإنجليزية فيما وراء البحار إلى ما كانت عليه قبل الحرب.

لم يتوقف الصراع الأنجلو فرنسي يوما ما، سواء داخل أوربا أو فيما وراء البحار،لكنه صراع يشبه الحرب الباردة، فكلا الطرين يعمل للأخ ألف حساب قبل الإقدام لي خطوة ما تمس مصالحه وفي إطار محاولة كل منهما تأكيد نفوذه في أوربا يأتي الحفاظ علي توازن القوي أيضاً وكانت حروب الوراثة بين الأسر المالكة في أوربا هي المحكات العلمية لتنفيذ هذه السياسة، وقد بلغت هذه المسألة أجلي صورة لها في حروب الوراثة النمساوية، وقد بلغت هذه المسألة أجلي صورة لها في حروب الوراثة النمساوية، حينما تطور الأمر إلى الحرب المباشرة بين انجلترا فرنسا، والتي أسفرت في النهاية عن صلح أوربي عام تزعمته إنجلتر وفرنسا هو صلح إكس لاشابل الذي أعاد الأمر – كما سبق – إلى صابها في أوربا وفيما وراء الحار، غير أنه لم يقض علي الصراع البحري والتنافس بين بريطانيا وفرنسا فيما وراء البحار.

حرب السنوات السبع(١٧٥٦ – ١٧٢م) :

في أعقاب صلح إكس لاشابل أخذت تتبدل سياسة الأحلاف في أوربا من جديد علي أساس تقييم ما حـدث يـف حروب الوراثة النمساوية فرأت فرنسا أنها لم تجن شيئاً من وراء تحالفها مع ملك بروسيا الذي تقلب في الحرب حسب مصالحه ورأت أسبانيا أنها لم تحصد شيئاً من وراء معاداة فرنسا وأن الحرب ساعدت علي سمو نجم بروسيا فقط فيبدأ الانقلاب الدبلوماسي الجديد، ومن ثم سياسة الأحلاف في أوربا مع عام ١٧٥١م بتودد ماريا تريزا إلى مدام بومبادور، محظية لويس الخامس عشر، وصاحبة النفوذ الأكبر في البلاط الفرنسي، وفي عام ١٧٥٥م ينشب القتال بين الانجليز والفرنسيين في شمال أمريكا دون إعلان رسمي للحرب، مما أدي إلى توتر العلاقات بين البلدين، زاد من هذا التـوتر تقارب جورج الثاني ملك إنجلترا مع فردريك ملك بروسيا، ذلك التقارب الذي أسفر عن اتفاقية لضمأن حياد بروسيا في بداية عام ١٧٥٦م إذا ما اشتعلت الحرب بين إنجلترا وفرنسا، وتستغل النمسا هذه الاتفاقية لزيـادة التقـارب مـع فرنسا، وإنهاء الصراع بين البربون والهابسبورج، فتعقد مع فرنسا عدة اتفاقيات في مايو ١٧٥٦م للحيـاد والـدفاع المشترك وتقوية الروابط بين البلدين.

وفي يونيو١٧٥٦م تنشب الحرب بين إنجلترا وفرنسا في الميدان الأوربي، ومع التقارب النمساوي الفرنسي تزيـد حدة التوتر على الحدود بين بروسيا والنمسا فيحشد كل منها قواته علي الحدود وتنزل قوات بروسيا إلـى سكسـونيا (أغسطس ١٧٥٦م).

وفي أوائل عام ١٧٥٧م تنزل السويد إلى الميدان، كما توقع النمسا اتفاقية مع روسيا، لتزيد العلاقـات الأوربيـة تشابكاً، وبذلك لن تقتصر الحرب القادمة علي انجلترا وفرنسا أو علي تصفية حساباتهما بالنسبة للمسـتعمرات وانمـا دخلت فيها حسابات واعتبارات الدول الأوربية التي لم ترض عن نتائج إكس لاشابل.

عند بداية القرن الثامن عشر كانت فرنسا تسيطر علي كندا وجزيرة كيب بريتون عند مدخل سانت لورنس واقليم لويزيانا والمنطقة المحيطة بنهرالمسي حتى خليج المكسيك بينما كانت إنجلترا تسيطر علي شريط ضيق ممتـد علـي طول الساحل الشرقي من مص نهر سانت لورنس حتى فلوريدا علي خليج المكسيك ويضم ثلاث عشرة ولايـة وقـد اضاقت إليها بعد صلح أوترخت بعض الأملاك التي كانت تابعة لفرنسا ومنها المنطقة المحيطة بخليج هدسون وجزر نيوفوندلاند وشبه جزيرة أركديا ولم تحدد معاهدة أورتخت الحدود علي وجه الدقة بين أملاك الجـانبين ممـا سـبب الخلافات بعد ذلك، ساهم في هذه الخلافات التوتر الناجم عن إقامة فرنسا سلسلة من التحصينات القوية في أملاك هـا في كندا ولويزيانا في مناطق تهدد الوجود البريطاني منها قلاع نياجرا ومونتريال ودوكين ونيو أورليانزو وأعاقت هذه القلاع حرية الحركة داخل المستعمرات الانجليزية، فشن قائد إنجليزي حملة علي قلعة دوكـين لتحطيمهـا، تغلـب

الفرنسيون علي الحملة وقتلوا قائدها، وإثر هذه الحملة أرسلت فرنسا حملة للاستيلاء علي جزيرة مينورقة في البحـــر المتوسط ونجحت الحملة في بداية عام ١٧٥٦م قبيل إعلان الحرب مباشرة.

أما منطقة التنافس الثانية للمناقشة بين انجلترا وفرنسا فكانت جزر الهند الغربية وقد شهدت تفوقاً لصالح فرنســا أيضاً، فكانت تسيطر علي جزر مارتينيك Martinque وتوباجو Tobago وسانت نيانيت St. Nieneat ولم يكــن لإنجلترا في تلك المنطقة سوي جزية بربادوس Berbados .

وتمثلت المنطقة الثالثة في التنافس بين الدولتين في الشرق الأقصي، حيث نجحت فرنسا في إيجاد نفوذ تجاري لها في الساحل الجنوبي الشرقي للهند المعروفة بساحل كرومندل، وأهم مراكزها التجارية هي بونديشري Pondicherry وفي البنغال تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية، وسيطرت إنجلترا علي الساحل الغربي لشــب القــارة الهندســية وتوغلت فيه أكثر، واتخذت شركة الهند الشرقية البريطانية من كلكتا مقراً لها، كما سيطرت علي بومباي، وبذلك كان التفوق في هذا الميدان لإنجلترا.

في البداية شهدت ميادين القتال تفوقاً فرنسياً عامي ٥٦ / ١٧٥٧م غير أن انتصارات فردريك ملك بروســيا فــي أوربا جاء لصالح انجلترا فيما وراء البحار فأحرزت جيوشها انتصارات في أمريكا، فسقطت في يدها لويزبرج وقلعة دوكين التي أصبح يطلق عليها بطرسبرج، وبلغت هذه الانتصارات ذروتها بسقوط كويبــك ثــم مونتريــال عــامي ٥٩/١٧٦٠م فوضعت انجلترا يدها علي مستعمرات فرنسا في جزر الهند الغربية لكن الموقف تغيــر بمــوت الملــك جورج الثاني (أكتوبر ١٧٦٠م) حيث اختلفت آراء خليفته (جورج الثالث) عن آراء وليم بت فكــأن يــري ضــرورة التوصل إلى صلح سريع مع فرنسا خاصة بعد اتفاقها مع أسبانيا في عام ١٧٦١م ولكنه اضطر إلى الاســتقالة مــن الوزارة بعد رفض سياسته ومع ذلك فشلت المفاوضات بانضمام أسبانيا إلى جانــب فرنســا، وتوالــت الانتصــارات الإنجليزية وأسفرت عن استيلاء إنجلترا علي هافانا في جزر الهند الغربية، وعلي مانيلا في جزر الهند الشرقية مــن أملاك أسبانيا.

نجحت فرنسا وحلفاؤها في تطويق فردريك ملك بروسيا من كل جانب ففي الجنوب تواجهه النمسا وفــي الشــرق روسيا وفي الغرب وفي الشمال السويد، ورغم محاولات بريطانيا تخفيف هذا الحصار بتقديم العــون تــارة وشــن الغارات علي شواطئ فرنسا تارة أخرى، فأن وطأة الحصار كانت شديدة نظراً لأن أعداء ذوي موارد بشرية هائلــة غير أن فردريك أنقذ بلاده بأعجوبة، عندما فاجأ جيوش النمسا وفرنسا في روســباخ Rosbach (نــوفمبر ١٧٥٧م) ويقضي عليها بسهولة ثم وجه قوات النمسا منفردة بمعاونة مائة ألف من سيليزيا، فألحق بها هزيمــة ســاحقة فــي

ديسمبر ١٧٥٧م، وتمكن من طرد أعداء ه من سكسونيا وسيليزيا وهاتأن المعركتأن رفعتا فردريك إلـــى مصـــاف العظماء.

ويرجع نجاح فردريك إلى عبقريته من ناحية وتفكك اعدائه وتحاسدهم من جانب آخر وقد ساءت حالـــة بروســـيا كثيرا في أواخر عام ١٧٦١م ويرجع ذلك إلى نجاح الروس والنمساويين وإلى حرمأنه من المساعدات الانجليزية بعد موت جورج الثاني واعتلاء جورج الثالث عرش انجلترا (١٧٦٠م– ١٨٢٠م) ولا ينقذ فردريك سوي وفـــاة القيصـــر اليزابيث وتولي بطرس الثالث عرش روسيا سنة ١٧٦٢م وهو من المعجبين بفردريك، فعقـــد معـــه صـــلح ســـأن بطرسبرج مايو (١٧٢٦م) وجر هذا الصلح صلحاً آخر بين السويد وبروسيا وتتابعت انتصارات فردريك علي النمسا وفي مثل هذه الفرصة تتهيأ الظروف لعقد صلح بين الأطراف المتنازعة.

صلح باريس (فبراير ١٧٦٣م)

ينتهي الصراع البحري بوساطة سردينيا في صلح باريس يعقبه صلح هوبر تسبرج Hubertsburg بين بروســـيا والنمسا (فبراير ١٧٦٣م) وهو الصلح الذي أكد اتفاقيات درسدن فتحتفظ بورسيا بسيليزيا وإرجاع الحالة في سكسونيا إلى ما كانت عليه قبل الحرب، ويعد فردريك بإعطاء صوته لجوزيف أبن ماينا تريـــزا مـــن فرانســـيس وأســـبانيا والبرتغال تسليم فرنسا لإنجلترا كل كندا بما في ذلك أكاديا ونوفا سكوشيا ورأس بريتون وأن نهر المسيســـبي يحـــدد ممتلكات الانجليز غربا، ما عدا أورليان التي سبق أن سلمتها فرنسا مع الأراضي الواقعة غرب المسيسبي إلى أسبانيا (نوفمبر ١٧٦٢م) كتعويض لها عن فقد فلوريدا وتسلم أسبانيا فلوريد لإنجلترا نظير إرجاع هافانا لها وتنازلت أسبانيا عن حقوقها في مصايد الأسماك حول نيوفوندلاند، بينما تحتفظ فرنسا ببعض الحق في هذه المصايد.

وتحتفظ إنجلترا بالسنغال في أفريقيا وجرينادا وسان فنسين والدومينيك وتوباجو في جزر الهند الغربية ومينورقـــه في البحر المتوسط وتحتفظ فرنسا ببيل إيسل وجوري في أفريقيا وجواد لوب ومارتينيك وسانت لوتشيا في جزر الهند الغربية، أما في الهند فقد أعيدت كل الفتوحات إلى ما كانت عليه عام ١٧٤٩م ولكن الممتلكات الفرنسية تصير مجرد مراكز تجارية ولا يحق للفرنسيين إقامة قلاع أو الاحتفاظ بقوات عسكرية هناك.

وعلى الرغم من فقدان فرنسا لكثير من مستعمراتها فيما وراء البحار إلا أنها احتفظت لنفسها بحقوق الصيد وحرية في البحار والمحيطات الأمر الذي خفف عنها كثيراً من أهوال الهزيمة، لأن حقوق الصيد والتجـــارة ســـيكونان أهـــم مميزات القرن التاسع عشر ولم يلق هذا لصلح ترحيباً في بريطانيا، لأنه في نظرهم أقل من انتصاراتهم بكثير ولكنـــه أعاد لفرنسا كثيراً من المواقع التي سلبت منها بالحرب، وأعطاهم بعض الحقوق التجارية في الهند، أما أسبانيا فقدت

الكثير من مستعمراتها باشتراكها في المرحلة الأخيرة للحرب ضد انجلترا وكانت أسبانيا قبل ذلك مباشرة تنتهج سياسة حيادية حكيمة وأن كانت أسبانيا قد فقدت بعض مستعمراتها فقد ردت إليها انجلترا بعض من هذه المستعمرات نظير احتفاظها بالامتيازات التجارية مع أسبانيا ومستعمراتها التي حصلت عليها في نهاية القرن السابع عشر، رغم معارضة شارل الثالث ملك أسبانيا آنذاك في تجديد تلك الامتيازات بين الدولتين.

ساد أوربا عقب صلح باريس ١٧٣م فترة من الهدوء النسبي، بسب الخسائر التي سببتها حرب السنوات السبع للدول الأوربية، وتخلت انجلترا عن دورها الريادي في القارة، وانحصر نشاطها في المسائل الداخلية، وانهمكت في القضاء علي حركة التحرير التي استشرت في مستعمراتها الأمريكية، والتي انتهت بنشأة دولة الولايات المتحدة الأمريكية، وانقسمت أوربا إلى قسمين، القسم الجنوبي تتزعمه فرنسا وأسبانيا وتحكمه أسرة البربون، وقد انشغل في الحركة الفكرية الجديدة، أما الملكيات المستنيرة في الشمال ممثلة في روسيا والنمسا وبروسيا فقد انشغلت في مشكلة وراثة العرش البولندي.

تطور الحركة الفكرية والدينية:

شهد القرن الخامس عشر ظهور حركة الإصلاح الديني غير أن انقسام البروتستانت إلى جماعات متنافسة أوقف عملية تطور حركة الإصلاح الديني، فلم تصل إلى حد نمو فكرة الحرية الفكرية وانعكس هذا الوضع علي الأدب، فاستغرقه الجمود هو الآخر في جميع أنحاء أوربا، وترتب علي ذلك أن ساد أوربا حكومات مطلقة أخضعت الأدب لأهوائها، باستثناء إنجلترا التي استمر أدباؤها يناضلون من أجل الحرية، فاحتفظ الأدب هناك باستقلاله ومن إنجلترا انتقلت الأفكار الأدبية الحرة إلى فرنسا في القرن الثامن عشر.

ويتميز القرن الثامن عشر بآراء فولتير (١٦٩٤ –١٧٧٨م) ومونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥م) وروسو (١٧١٢ – ١٧٧٨م) حيث انتقد فولتير الأفكار السائدة عن الدين والسياسة والمجتمع نقداً لاذعاً وتميزت أفكاره بالمثابة بل أكثر من المثابة حينما طالب الحكومات بأن تكون خدمة الفرد ورفاهيته هي أحد أهدافها، وجعل رفاهية الرعايا أهم من مصالح العائلة الملكة أو امتيازات الطبقات العليا وكأن مونتسكيو أكثر من فواتير اعتدالاً ففي كتابة روح القوانين esprit des Lois يظهر الأخطاء المعروفة في نظم الحكم ويظهر إعجابه بالنظام الإنجليزي أما روسو في كتابه العقد الاجتماعي Conrtact Social يقول أن السلطة الملكية تنبع من عقد بين الملك والشعب . سارت الأفكار الجديدة في المجتمعات الأوربية تحت إشراف ملوكها أحياناً، متظاهرين بقيادتهم لحركمة تنوير الرعية ونتج عن ذلك تدمير حركة الجزويت حماة الكاثوليكية.

شهد الجزويت أول ضربة في البرتغال، في منتصف القرن الثامن عشر وهي دولة الجزويت الأولي، وبعد ذلك حذت الدول الأدبية حذو البرتغال في طرد الجزويت القضاء علي مالهم من نفوذ وجزويت القرن الثامن عشر يختلفون عن جزويت القرون السابقة فلم تعد حركة دينية بحته، وإنما شغلوا أنفسهم بالتجارة، واستخدموا نفوذهم في الحصول علي امتيازات واحتكارات مكنتهم من ثروات طائلة وجاء اضطهاد الجزويت في البرتغال علي إثر الأزمة المالية ومعارضتهم لإصلاحات الوزير بومبال.

انتظر بومبال حتى فرغ من مشكلة باراجواي بأمريكا الجنوبية، وبدأ في اضطهاد الجزويت، واستخدم ضدهم محاكم التفتيش، حتى طردهم من البرتغال نهائياً في عام ١٧٥٩م، وقام بمصادرة ممتلكاتهم، غير عابئ بتوتر علاقة بلاده مع البابوية في روما.

ثم حذت أسبانيا حذو البرتغال فأخذ شارل الثالث ينقل بالجزويت وأرغم رجال الدين علي الخضوع للضرائب ثم انتقلت العدوى إلى فرنسا وجنوا والبندقية.

مسألة تقسيم بولندا:

كانت بولندا دولة قوية تثير الذعر في نفوس جيرأنها، غير أنها تعرضت للضعف الشديد في القرن الثامن عشر، وترجع أسباب هذا الضعف إلى الدستور البولندي وسياسة بولندا الدينية، ففيما يتعلق بالمسألة الأولى كان الدستور ينص علي قيام ملكية منتخبه من قبل النبلاء الأمر الذي جعل السلطة الحقيقة في يد النبلاء فغالبا ما كان النبلاء يساومون الملك نظير انتخابه ونص الدستور علي حق الفيتو للنبلاء فمن حق أي نبيل وقف قرارات المجلس البولندي الدايت وقد ساعدت هذه القضية علي عدم السماح بنمو طبقة وسطي في المجتمع البولندي.

أما السياسة الدينية فهي ليست وليدة القرن الثامن عشر وإنما بدأت في أواخر القرن السادس عشر حينما كانت بولندا مركزاً لحركة الإصلاح الديني الكاثوليكي، وعوملت المذاهب الأخرى بشدة، وصدر مرسوم (١٧٣٣م) بقصر حق التوظيف في الوظائف العامة وعضوية مجلس الدايت البولندي علي الكاثوليك فكانت شكاوي البروتستنت والأرثوذكسي ذريعة لتدخل الدولة الأجنبية في الشئون الداخلية لبولندا، فردريك– ملك بروسيا – لم يكن متديناً لكنه وجد في اضطهاد بورتستنت بولندا ذريعة للتدخل وتحقيق أطماعه التوسعية فوعدهم بالمساعدة ودوافع فردريك في تقسيم بولندا واضحة، حيث تفصل أراضي بولندا بين شطري بلاده وقد عانت بروسيا من هذا الأمر في الحروب ولاسيما حرب السبع سنوات، حيث تعرضت بروسيا الشرقية لخطة الغزو الروسي، ولم ينفذها سوي موت القيصر إليزابيث (١٧٦٢م) .

ونصبت روسيا من نفسها حامية للأرثوذكس في بولندا، واتخذت من هذا الأمر ذريعة للتدخل في شئون بولندا الداخلية ووجدت روسيا في مشكلة العرش البولندي فرصة للتدخل، وتنصيب احد البولنديين الموالين لها ملكاً علي بولندا، بعد وفاة الملك البولندي الذي ينتمي إلى العائلة الحاكمة في سكسونيا حليفة فرنسا والنمسا، فكانت القيصر كاترين تتطلع لحكم بولندا عن طريق عميل لها.

أما فرنسا فكانت منهمكة في استعادة نفوذها البحري، كما أن زواج ابن لويس الخامس عشر من ابنة الملك البولندي أغسطس الثالث جعل فرنسا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلة ساكسوني، وباعد ذلك بينها وبين حزب الإصلاح في بولندا، وكأن موقف النمسا مشابها لموقف فرنسا مائعاً غير محدد، وأن مال إلى حد ما إلى جانب النظام القائم في بولندا.

التقسيم الأول لبولندا:

مات الملك البولندي أغسطس (١٧٦٣م) وتحدد (مارس ١٧٦٤م) موعداً لعقد الانتخابات، واستعدت روسيا بمرشح موال لها هو بونيا توفسكي Boniatowski وهو من أصدقاء كاترين، ويتميز بضعف الشخصية وسهولة الانقياد، وكأن يمت بصلة قرابة لزعيم المعارضة في بولندا، وقد دخلت القوات الروسية بولندا، قرب الانتخابات لتأييد هذا المرشح وعقدت كاترين (قيصر روسيا) معاهدة مع فردريك (ملك بروسيا) لتأكيد هذا الاختيار، وقد خشيت النمسا من شبح الحرب مع بروسيا فامتنعت عن التدخل الفعلي، ووقفت فرنسا موقف المتفرج، وماس الجيش الروسي سياسة الإرهاب، فأسفرت الانتخابات عن فوز بونياتوفسكي ومن ثم أصبح المبعوث الروسي له الكلمة الأولى في بولندا.

اهتم حزب الإصلاح في الدايت البولندي بالمسائل الدستورية أكثر من اهتماماته الدينية، طلبت روسيا إجراء إصلاحات دينية ترمي إلى إعطاء العناصر غير الكاثوليكية كافة حقوقها ففرض الدايت الإصلاحات التي اقترحها الروس، علي اعتبار أن الأولوية للإصلاحات الدستورية وأن معظم البولنديين كاثوليك متعصبون فأدي هذا الرفض إلى حل الدايت، وعم السخط كافة أنحاء بولندا، وقامت القوات الروسية بإخماد حركات التمرد بكل قسوة.

بدأت تصحو كل من النمسا وفرنسا من غفوتها تجاه بولندا، ووضعتا خطوة لتحريض الدولة العثمانية علي إعلان الحرب ضد روسيا، وتقريب النمسا من بروسيا لإبعاد الأخيرة عن التحالف مع روسيا نجحت فرنسا في الشق الأول من الخطة، فأعلن ت الدولة العثمانية الحرب علي روسيا في أكتوبر عام ١٧٦٨م أما بالنسبة للشق الثاني فقد قبل فردريك العمل مع النمسا علي أمل فصلها عن فرنسا وإقناعها بفكرة تقسيم بولندا، وإرضاء النمسا بجزء من هذا التقسيم، وعندئذ يتكون تحالف بروسي- روسي- نمساوي وتمكن الروسي من هزيمة الأتراك وطردهم والاستيلاء

علي بعض ممتلكاتهم (الأفاق) في عام ١٧٧٠م، الأمر الذي آثار الذعر في نفوس الروس فأبلغوا فردريك أنهم لن يسمحوا بمجاورة الأملاك الروسية للأملاك النمساوية، وهنا استشعر فردريك- من خلال لقاءات بالإمبراطور النمساوي- إمكانيات طرح فكرة التقسيم وبخاصة بعد سقوط شوازيل في فرنسا، فترك الساحة الدولية خالية من معارضي فكرة التقسيم، ووقفت ماريا تريزا وحدها في الميدان، غير أن الإمبراطور أقنعها بفكرة التقسيم.

استمرت فكرة التقسيم ما يقرب من عامين، حيث يطمع كل فريق في الحصول علي أكبر قدر من الغنيمة . وفي أغسطس ١٧٧٢م تم تقسيم بولندا للمرة الأولي، حيث حصلت روسيا علي مساحة تبلغ ٢٥٠٠ ميل مربع شرقي بولندا، وحصلت بروسيا علي منطقة في غربي بولندا مكنتها من السيطرة علي نهر الفستولا، لكنها لم تحصل علي دانزج DANJIG أما النمسا فقد حصلت علي منطقة تعادل نصف ما حصلت عليه روسيا في جنوب بولندا، وبقي بيناتفسكي ملكاً علي ما بقي من بولندا لكنه دميه في يد الروس، وأرغم الدايت علي إقرار التقسيم.

التقسيم الثاني لبولندا (١٧٩٣م)

لم يكن خضوع البولنديين القسيم يعني رضاءهم عنه، وإنما جاء قبولهم بقوة السيف الروسين وفي أعقاب التقسيم الأول تعمقت فكرة الإصلاح في بولندا لدي الملك والشعب معا، متأثرين في ذلك بحركة الإصلاح التي تمت في فرنسا انتهز البولنديون اندلاع الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا مرة أخرى في عام ١٧٨٧م وطلبوا من فردريك ملك بروسيا مساعدتهم، فرحب فردريك يدفعه إلى ذلك تطلعه لضم دانزج وفي مايو ١٧٩٠م وافق الدايت البولندي- في إطار حركة الإصلاح – علي دستور جديد يهدف إلى تحويل بولندا من ملكية منتخبة تعتمد علي الفوضي إلى ملكية دستورية نظامية فألغي حق النبلاء في انتخاب الملك، وجعل الملكية وراثية، وجعل السلطة التنفيذية في يد الملك ومجلس وزراء مسئول أما السلطة التشريعية فقسمت بين مجلس شيوخ ودايت منتخب وسحب من النبلاء حق الفيتو وحق الاتحاد، واعترف الدستور بالمسيحية دينا وبالكاثوليكية مذهباً رسمياً للدولة، مع التسامح بالنسبة للمذاهب الأخرى.

تباينت ردود الأفعال الدولية للدول المعنية بالإصلاحات البولندية، فأبدي الإمبراطور النمساوي الجديد ليوبولدي الثاني (١٧٩٠- ١٧٩٢م) ارتياحاً للدستور الجديد، علي اعتبار أن تقوية بولندا يبعد عنه شبح الخطر الروسي. أما بروسيا فلم ترض عن الإصلاحات الجديدة لأنها تخلق ملكية قوية علي حدودهم الشرقية، لاسيما بعد رفض بولندا تسليم دانزجوكان حنق روسيا أشد علي الإصلاحات الجديدة، فانتظرت حتى فرغت يدها من حرب الأتراك (١٧٩٢م) وزحفوا علي بولندا، مستعينين بأعداء الإصلاح إلى التخلي عن أنصار الإصلاح، والانضمام إلى الاتحاد الذي ترعاه روسيا. وانشغلت النمسا بحربها مع فرنسا، بينما وقفت بروسيا تترقب الموقف.

اقترحت روسيا تقسيم جديد، بعد أن سيطرت علي الموقف في بولندا، ووافقتها بروسيا علي التقسيم بعد تـردد، وعقـدت معاهدة التقسيم بينهما، وبمقتضاها حصلت روسيا علي شرق بولندا تعادل حوالي ٤٠٠ ألف ميل مربع وحصلت بروسيا علي مائه ألف ميل مربع في غرب بولندا ضمت فيها مدينة دانزج وثورن أما باقي بولندا فشكل ولاية مستقلة في الشـكل لكنها خاضعة جوهرها للروسيا وعقدت روسيا اتفاقاً مع بولندا (١٧٩٣م) تعهد فيه البولنديون بعدم تغيير دستورهم، وعدم عقد اتفاقيات دولية قبل الرجوع للروسيا.

التقسيم الثالث لبولندا (١٧٩٥م) :

لم تمنع الاتفاقية الأخيرة الشعب البولندي من الغضب الشديد علي الأوضاع التي فرضتها عليه روسيا، وبـدا للعيـان أن الشعب البولندي ينتظر أية إثارة، وقد واتته الفرصة عندما حاول ممثل روسيا في وارسو إنقاص عدد الجيش البولندي، فعمت الثورة البلاد وقادها أحد أنصار الإصلاح ويدعي كوشيوسكو غير أن بروسيا لم تمهل الثوار، لتضمن قدراً أكبر من الغنيمة هذه المرة، فمهدت بروسيا الطريق أمام روسيا للانقضاض علي الثورة وإخمادها، وإلقاء القبض علـي قائـدها. وبدأت المفاوضات للتقسيم، وصممت روسيا علي إشراك النمسا في الغنيمة للتوازن بين الدولتين الألمـانيتين وعقـدت اتفاقية مع النمسا لتقسيم الجزء المتبقي بينها وبين بروسيا وحصلت روسيا علي نصيب الأسد من الغنيمة، وحصلت النمسا علي جزء آخر ومدينة كراكاو، أما المنطقة الباقية وبها وارسو فقد تركت لبروسيا، وبعد تردد قبلـت بروسـيا التقسـيم الجديد، وانتهت بولندا من الوجود

الفصل السادس

عصر الثورة الفرنسية

حري بنا أن نلقي نظرة على دول أوربا عشية الثورة الفرنسية، فقد كانت إنجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا هي الدول الكبرى في أوربا خلال القرنين السابقين على الثورة، يليها روسيا بدرجة أقل، فالهوة الحضارية بين سكان روسيا ونظرائهم في غرب أوربا كانت كبيرة، على الرغم من دورها السياسي المباشر أو غير المباشر في التحالفات الأوربية، لاسيما مع السياسة التوسعية التي اتبعها بطرس الأكبر ثم كاترين الثانية خلال النصف الأوسط من القرن الثامن عشر، أما الدولة التي لفتت الانتباه في الفترة الأخيرة فكانت بروسيا التي خرجت من تقسيم بولندا ١٧٧٢م دون اللجوء إلى السلاح بمغانم كثيرة، واثبت فردريك البروسي قدرة فائقة في خدمة بلاده، بنظام أوتوقراطي مستقيم صارم، فكرس جهوده للنهوض بالتجارة والصناعة في بلاده.

أما باقي الدول الأوربية فصغيرة ضعيفة، فأسبانيا تنحت عن التقدم الأوربي، وارتبط مصيرها بمصير فرنسا في الفترة الأخيرة، فالملكية فيها تنتمي إلى أسرة البربون التي تحكم فرنسا، وتنقسم إيطاليا إلى عدد من الدويلات أو المدن ذات السيادة الاسمية، لكنها تخضع في معظمها فعلياً لتوجيهات أسرة الهابسبورج النمساوية.

أما بولندا فكانت تعاني ضعفاً وفوضى سياسية واجتماعية، حيث يسودها النظام الإقطاعي مصحوباً بانحطاط خلقي وفكري، جيشها ضعيف وحدودها مرتعاً ومطمعاً للغزاة والطامعين، فشكلت لقمة سائغة لجيرانها النمسا وروسيا وبروسيا، وغدت فكرة تقسيمها تراود جيرانها، فكانت المسألة البولندية عشية الثورة الفرنسية أهم الهموم الأوربية.

أما الدول الإسكندنافية وهولندا فكانت جميعها دول مسالمة، تؤثر السلامة فلم تحاول المشاركة من قبل في الأحداث الأوربية الكبرى، فهل تضطرها الأحداث الأوربية إلى التخلي عن سياسة المسالمة؟

أســباب الثــورة:

تعددت أسباب الثورة في فرنسا

١–العجز المالي:

اعتلى لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا في العهد القديم العرش سنة ١٧٧٤م وقوبل بتفاؤل كبير نظراً لبغض الشعب لسلفه لويس الخامس عشر، بادر الملك الجديد بإعلان حبه للشعب وبدأ بجهود متواصلة لإصلاح الأوضاع المالية المتردية، لقيت هذه الجهود ترحيباً من المثقفين، لكن الأوضاع المالية والتجارية والصناعية المتردية استعصت

على الإصلاح؛ بسبب الامتيازات الشخصية التي أعفت النبلاء ورجال الكنيسة من الضرائب وألقت بها على كاهل صغار المزارعين، لذا كان العجز المالي هو الباب الأكبر المرشح لدخول الثورة إلى فرنسا.

لمع خلال الفترة الأولى من حكم لويس السادس عشر اسم "تيرجو" مراقب المالية المفعم بالحماس والحيوية، والذي قدم مشروعاً للإصلاح المالي تمثل في الحد من سلطة الكنيسة، وإيجاد نظام عادل للضرائب، وضمان حرية التجارة في الداخل والخارج، لكن أفكاره أثارت ذعر أصحاب الامتيازات، فتآمروا عليه، وكانت ماري أنطوانيت هي يدهم الطولى في البلاط، ولم يستطع الملك بشخصيته الضعيفة حمايته، فانتهى الأمر بعزله بعد عشرين شهراً فقط من تعيينه. وتم اختيار "نيكر" مراقبا للمالية، واستمر في منصبه إلى سنة ١٧٩٠ باستثناء فترة إقصاء من عام ١٧٨١ إلى ١٧٨٧ حينما عاد للمالية، وترجع طول فترته إلى نزاهته وحصافته الإدارية وتنازله عن راتبه للدولة، لكنه قبل النظام المالي بمشكلاته وامتيازاته، فلم يقدم تعديلا جوهريا، إرضاءً لأصحاب الامتيازات، وحاول تسيير الأمور بقروض مالية ذات فائدة أقل، فسار بالدولة نحو الهاوية ببطء.

٢- حرب الاستقلال الأمريكية:

جاءت حرب الاستقلال الأمريكية فرصة لفرنسا للانتقام من غريمتها إنجلترا، فكم خسرت فرنسا من مستعمراتها في القرن الثامن عشر نتيجة لحروبها مع إنجلترا ولاسيما في ميدان الأمريكتين، لذا اغتنمت فرنسا الفرصة، على الرغم من سوء الأحوال المالية لديها. ترددت الحكومة الفرنسية في إقحام نفسها في هذه الحرب في البداية خوفا من تبعاتها المالية وقوة غريمتها البحرية، لكن حب الانتقام من إنجلترا كان متغلغلا في الشعب الفرنسي قبل الحكومة، فسبق الشعب الحكومة بمحاولات فردية قادها السياسي البارع لافاييت بمجموعة من المتطوعين الفرنسيين، فنال عطف الأمريكان وقربهم من فرنسا، وأرغم الرأي العام الفرنسي على التعاطف ودفع الحكومة لمؤازرة الثوار، وتمكن الأسطول الفرنسي بمؤازرة أوربية من إلحاق الهزيمة بالأسطول الإنجليزي بالقرب من سواحل الولايات الأمريكية. فدعمت هذه الهزيمة الثوّار الأمريكان، وغدت كتابات روسو ومونتسكيو ولاسيما كتاب الأخير "روح القوانين" نبراساً للأمريكان في صياغة دستورهم. فكان انتصار الحرية فيما وراء الأطلسي نبراساً للثوار الفرنسيين بعد ذلك.

كان الأثر السلبي الأكبر لحرب التحرير الأمريكية في فرنسا على ماليتها، فلم يستطع نيكر تجاوز الأزمة أو الاحتفاظ بها داخل الدوائر المالية والإدارية، إنما حاول استغلال عطف الشعب الفرنسي على الثورة وصارحه في تقرير عام بالمشكلات المالية، لكن حاشية الملك رأت في الخروج بالأزمة من دوائر المالية والإدارة إلى الشعب تحريضاً له على الثورة، فتم إبعاد لينكر عام ١٨٨١، لكن الإبعاد لم يكن ذي جدوى، فاضطر الملك إلى إعادته مع تفاقم الأمور المالية التي استعصت على الحل.

٣- ازدهار الحركة الفكرية:

ساهم رجال الفكر في بلورة الفكر الرافض للأوضاع المتردية في فرنسا بشكل غير مباشر، إذ احتلت فرنسا المكانة الأولى في عالم الفكر في القرن التاسع عشر، فقاد فولتير ومنتسكيو وروسو الحركة الفكرية في أوربا، وإن تلاشت الفكرة القومية في أدب أوربا، فعلى الرغم من تعدد الحروب بين فرنسا وإنجلترا تكامل الأدب بين البلدين ولم يحرض على العداء، فاتسمت كتابات فولتير بالثورة على آراء الكنيسة وتصرفاتها وهاجم التعصب الديني لاسيما ضد البروتستانت، ورأى في الملكية المستبدة المستنيرة ممثلة في فردريك الأكبر مثلاً يحتذى. وكان مونتسكيو باحثاً متعمقاً في المسألة الدستورية وكان معجباً بالدستور الإنجليزي وبخاصة في الفصل بين السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية وكذا مسألة خضوع الحكومة للرقابة، وقد استعان الأمريكان في صياغة دستور الولايات المتحدة بكتابه "روح القوانين". أما روسو فنشر آراءه عام ١٧٦٢م في كتابه "العقد الاجتماعي" الذي أوضح فيه أن الحومة مدينة بوجودها للشعب واحتج على طغيان الحكومات في عصره ضد شعوبها، فمن حق الشعب دائماً أن يعدل أشكال الحكومة، ومع ذلك يرى أن الديمقراطية غير قابلة للتطبيق إلا في الدول الصغرى، وأن الدكتاتورية خيار قد يكون ضرورياً أحياناً، فكثيراً ما ينتاب أفكاره الغموض، وهذا سر الاختلاف عليه إلى يومنا هذا.

٤- زواج لويس السادس عشر من أميرة نمساوية:

تزوج لويس السادس عشر من أميرة نمساوية هي ماري أنطوانيت ابنة ماريا تريزا، وكانت امرأة حسناء قوية الشخصية، فكانت صاحبة الحظوة عند زوجها ولها كلمة مسموعة في القصر، إلا أن أصولها النمساوية كانت وبالاً عليها وعلى زوجها، فجلبت لهما بغض الفرنسيين وأسرعت بالثورة ضدهما، فعندما اشتبكت النمسا مع فرنسا إبان أحداث الثورة نعتها الثوار بـــ "المرأة النمساوية" على سبيل الازدراء.

صحوة العامة:

خلف نيكر في وزارة المالية شخص محبوب في البلاط يدعى كالون ١٧٨٣- ١٧٨٧م آمن أن إطلاق يد البلاط الملكي في المصروفات يسهل عملية الاستدانة بفوائد متزايدة، فزاد الطين بله، كما تبين لكالون أن الملكية لن تتمكن من حل المشكلة فدعا مجلسا من الأعيان وعرض عليهم المشكلة علهم يقبلون المساهمة في حل الأزمة بتحمل جزء من الضرائب، لكنهم تهربوا وأحالوا الأمر لمجلس طبقات الأمة؛ وهو مجلس مكون من ثلاث طبقات هم رجال الدين والنبلاء والعامة، كان ممثلو كل طبقة يجتمعون في غرفة على حدة، ثم يقدمون للملك شكاوى طبقتهم واقتراحات الحل، فليست له أية سلطات فعلية، وشتان بينه وبين المجالس النيابية في إنجلترا. سقط كالون فخلفه في وزارة المالية "دي بريين" وهو سياسي مخدرم اقترح اللجوء إلى السلطة الملكية في فرض ضرائب إضافية، لكن مشروعه فشل حيث تصدى له برلمان باريس وهم مجموعة من رجال القانون كانت مهمتهم تسجيل المراسيم الملكية، فرفضوا تسجيل أية ضرائب جديدة، معتمدين على قوة الرأي العام الذي تنامت قوته في الآونة الأخيرة، فاتخذ لويس السادس عشر خطوة حكيمة فأقال دي بريين، وأسند الأمر مرة أخرى إلى نيكر ١٧٨٧، الذي رأى ضرورة دعوة ممثلي الأمة لعرض المشكلة عليهم.

كان لابد من تشكيل مجلس طبقات الأمة الذي لم ينعقد منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان (١٦١٤م) اتفقت الآراء على اختيار ألف ومائتي عضو، نجح العامة في الضغط ليكون عدد ممثليهم يشكلون نصف المجلس (٦٠٠) وبقيت مسالة الاجتماع وشكل التصويت مسار خلاف، فالعامة متمسكون بضرورة الاجتماع في قاعة واحدة، وأصحاب الامتيازات يطالبون بالنظام القديم لتكون كل غرفة تمثل صوتا واحدا، تردد الملك في اتخاذ قرار حاسم حتى اجتمع ممثلو العامة في فرساي في أول يونيو ١٧٨٩م.

في فرساي رفض العامة التعاون مع الحكومة حتى تسلم لهم بمبدأ اجتماع الطبقات في قاعة واحدة ويكون التصويت بالأغلبية، واستمروا على موقفهم دون تردد ودائرة الفوضى تتسع والبلاد تسير نحو الهاوية، ووقف الملك عاجزا وكان بإمكانه فض المجلس بتهمة التمرد والعصيان لكنه خشي العواقب.

قاد الأب سييز أحد نواب العامة التمرد، فدعا طبقتي النبلاء ورجال الدين للانضمام للعامة من أجل توحيد الصف، وعندما رفضوا اقترح استبعادهم وتشكيل "الجمعية الوطنية" من نواب طبقة العامة وحدها في ١٤ يونيو ١٧٨٩، حاول الملك وئد الخطة بعقد جلسة ملكية وإملاء مطالبه على الجمعية وهو تقليد قديم اتبعه ملوك فرنسا، فمنع الأمن الجمعية من عقد اجتماعها في فرساي، فاجتمعت بالقرب من ملعب التنس، وانضم معظم رجال الكنيسة إلى الجمعية في ٢٢ يونيو، وفي اليوم التالي عقد الملك جلسته وأعلن عن إصلاحات إدارية ومالية كبيرة، لكنه أصر على الاجتماع في قاعات ثلاث، فرفض العامة، واضطر الملك على النزول على رغباتهم، فناشد النبلاء ورجال الدين الانضمام على العامة، وبذلك خضع الملك للعامة.

الثورة الفرنسية:

تغير اسم الجمعية الوطنية إلى الجمعية التأسيسية وواصلت اجتماعها لوضع دستور للبلاد، في الوقت الذي تكبلت فيه يد الحكومة، وتعطلت المصالح وتوقف دافعوا الضرائب وزادت البطالة وتفشت المجاعة، وشهدت فرنسا عمليات اعتداء على قصور النبلاء، وزحف العامة نحو باريس يطالبون بلقمة العيش والحياة الكريمة. قررت الحكومة التصدي لشبح الثورة، فصدرت الأوامر في ١١ يوليو ١٧٨٩ لقوات الأمن بالتصدي للعامة، ووصلت فرساي أنباء عن إقالة نيكر محبوب الشعب من منصبه، وبدت في الأفق بوادر انقلاب ملكي وشيك. شرع ممثلو الأمة في تشكيل حكومة ظل، وتمكن الحرس الثوري الذي تشكل حديثاً من اقتحام دار السلاح واستولى على كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة، وفي خطوة مفاجئة انضم الحرس الفرنسي النظامي للثوار، وفي ١٤ يوليو هاجم الثوار حصن الباستيل، الذي يشكل رمزا للطغيان، فتغلبوا على حاميته الصغيرة واستسلم المحافظ على وعد بتأمين حياته، لكنه لقي حتفه في الفوضى التي رافقت استسلام الحصن، وبدا الثوار هدم الحصن. وعلى غير المتوقع فبدلا من مقابلة عنف الثوار بالقسوة استسلم الملك وحضر في باريس صلاة شكر في كتدرائية نوتردام تعبيراً عن رضاه عما حدث.

انتهت الجولة بتمكين قبضة الثوار على باريس، وانصرفت الجمعية التأسيسية لوضع الدستور، وعين لافاييت قائداً للحرس الوطني. اهتزت صورة الملك وغدت محاطة بالشكوك. حاول الملك افتتاح بعض المصانع في باريس

لاستيعاب العاطلين، لكنهم تدفقوا إلى پاريس من حدب وصوب، وزادت الفوضى فاضطرت السلطات على غلق أبواب المصانع الجديدة. في ٥ أكتوبر ١٧٨٩ احتشدت مجموعة من العامة أمام دار البلدية مطالبين بالخبز، ثم زحفوا نحو قصر فرساي لمطالبة الملك والجمعية بتوفير الخبز، وتمكنوا من التسلل إلى داخل القصر، المر الذي غدا في غاية الخطورة على حياة الملك لولا تدخل لافاييت، لكنه طالب الملك بالانتقال إلى پاريس، وكالعادة لم يجد الملك بداً من الاستجابة وتبعته الجمعية، وغدت پاريس وكأنها وضعت الملك في قبضتها. تخوف الأمراء من ضعف الملك واستجابته للثوار فأخذوا في الانسحاب إلى ما وراء الحدود، لاسيما الولايات الألمانية، الأمر الذي أسرع باقتلاع جذور الملكية من فرنسا.

أقرت الجمعية التأسيسية في أول أغسطس ١٧٨٩ إعلاناً لحقوق الإنسان يكون أساساً للدستور، تضمن الإعلان ثمانية بنود هي:

١ -يولد الناس أحرارا ويظلون كذلك، أما الامتيازات فتحكمها مصلحة العامة.
٢ -هدف أي تشكيل سياسي المحافظة على حقوق الإنسان في التملك والأمن والحرية ومقاومة الظلم.
٣ -الأمة مصدر السلطات، فلا يجوز لفرد أو جماعة أن تحكم دون الرجوع للأمة.
٤ -الحرية الشخصية تسمح للفرد بفعل كل شيء ما لم يضر بالآخرين.
٥ -القانون يمثل إرادة العامة، ولجميع المواطنين حق المشاركة في وضعه بأنفسهم أو عن طريق ممثليهم.
٦ -لا يجوز الإضرار بالشخص من جراء آرائه حتى لو كانت دينية، ما لم ينتج عنها خللا بالنظام العام الذي يحافظ عليه القانون.
٧ -حرية الآراء والأفكار هي من أغلى حقوق الإنسان.
٨ -لا يجوز حرمان أي شخص من التملك إلا إذا اقتضى ذلك ضرورة عامة نص عليها القانون.

والبنود السابقة تبين أن الجمعية التأسيسية غرقت في عالم المبادئ بدلا من أن تلبي الحاجات الأساسية لفرنسا، وثمة فارق كبير بين هذه المبادئ ومبادئ الثورة الإنجليزية التي ركزت على معالجة الموقف في إنجلترا بحلول فورية.

صاغت الجمعية التأسيسية دستور فرنسا الجديد متأثرة بالدستور الإنجليزي وإن لم يبح أحد من أعضائها بذلك، يراودهم حلم الملكية المروضة، مع الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية؛ فالملك يرأس السلطة التنفيذية ويعين قادة الجيش والوزراء وله حق النقد (ڤيتو) فيؤجل القرار التشريعي لدورة واحدة، وليس النقد المطلق الذي يلغي القرار، أما السلطة التشريعية فيمثلها مجلس مكون من ٧٤٥ عضوا، وتم قصر ممارسة الحقوق السياسية على الذين يستوفون شروط الملكية، فاستبعد أرباب الحرف من دائرة الناخبين. أما القضاء فتقرر تعيين القضاة بالانتخاب، واستحدث نظام المحلفين، وألغي التعذيب. وتقرر إلغاء الحكم المحلي والمقاطعات الإدارية وقسمت فرنسا إلى ٨٣ مديرية، أطلق عليها أسماء مستمدة من الظاهرات الطبيعية الموجودة بها أو المميزة لها.

أما بالنسبة للكنيسة فقد ضمت الجمعية التأسيسية الكثير ممن اضطهدوا في السابق من قبل الملكية والكنيسة ولاسيما البروتستانت، فإذا كانت القوانين الجديدة قد روضت الملكية فيجب –من وجهت نظرهم– تقليم أظافر الكنيسة أيضا، فقررت الجمعية إلغاء العشور، على اعتبار أنه من مظاهر الإقطاع. ووجد تايران في أموال الكنيسة مخرجاً للأزمة المالية التي تعانيها البلاد، فقررت الجمعية أن تتسلم الدولة ثروة الكنيسة، على أن تتولى الحكومة بنفسها الإنفاق عليها ودفع رواتب رجال الدين. وأعادت الجمعية هيكلة الكنيسة إداريا بما يتناسب مع التقسيمات الإدارية الجديدة، ووازنت بين رواتب القساوسة فقلصت رواتب القساوسة الكبار ورفعت رواتب الصغار. رفض البابا التعديلات الفرنسية الجديدة بحق الكنيسة، وهدد الموافقون عليها بالحرمان، فلم تتراجع الجمعية وطالبت رجال الدين بأن يقسموا يمين الولاء للملك والدستور والقانون، فأقسم بعضهم ورفض البعض، فتم إعفاء الرافضين من مناصبهم مع تعويضهم بمعاش معقول.

تخوف الملك من التعديلات الجديدة لاسيما الخاصة بالكنيسة فقد كان متديناً، لكنه وقع عليها خائفاً غير مقتنع. حاول الملك الهروب من باريس في عيد الفصح ١٧٩١ إلى قصر سان كلو، على بعد سبعة أميال من باريس، ليتفادى المناولة من قسيس دستوري، فاعترضه جماعة من العمة أخذته قصرا وأرغمته على التوجه إلى قصر التويليري في باريس، دبر الملك خطة أخرى للهرب والتترس بالفرقة العسكرية الشمالية، وأغراه الأمراء الفارين خارج البلاد بالمساعدة، ليتمكن من رفض التعديلات الجديدة في الدستور، وكادت خطته أن تنجح بعد أن هرب متخفياً لولا أن اكتشف أمره بعض العامة في آخر لحظة فأعادوه إلى باريس، فقد الملك مصداقيته لدي الشعب والجمعية، لكن أعضاء الجمعية أبقت عليه في خطوة أخيرة ريثما تنتهي من تعديلات الدستور، فغن قبلها وإلا أتوا بدوق أورليان من فرع الأسرة الآخر ملكاً. وفي هذه الأثناء ظهر تيار داخل الجمعية ينادي بالجمهورية، لأول مرة في تاريخ فرنسا، ووضعوا عريضة في ميدان شامب دي مارس ليوقع عليها العامة، فالتف حولها كثير من أفراد الشعب وكادت تسبب فوضى، فتدخل الحرس الوطني وأطلق النار عليهم لتفريقهم فسقط العديد في مذبحة عرفت باسم الميدان المذكور في ١٧ يوليو ١٧٩١، ورغم انتهاء الأحداث وتوقيع الملك على الدستور، إلا أن هذه الحادثة رفعت من أسهم الجمهوريين في فرنسا.

لم يكن توقيع الملك على الدستور يعني انتهاء متاعب فرنسا فقد أدت الظروف الداخلية والخارجية إلى حرب عجلت بوضع عنق لويس السادس عشر على المقصلة، فالجمعية الوطنية الجديدة حرمت من خبرة أعضاء الجمعية التأسيسية "بحكم القانون" فسيطر عليها جمعات يسارية متحمسة للجمهورية، فضيقوا على الملك حتى أقال وزارة المحافظين التي عينها، وجاء بوزارة موالية لعم من اليعاقبة قليلي الخبرة. حاول أعضاء الجمعية توريط الملك فعرضوا عليه قانون يبيح قتل الأمراء الفارين خارج البلاد إذا لم يعودوا في موعد أقصاه أول يناير ١٧٩٢، رفض الملك فاعتبروه متواطأ مع أعداء الثورة. وتسببت قلة خبرة الوزارة الجديدة في توريط فرنسا في حرب مع جيرانها، على الرغم من وجود تيار أوربي متعاطف مع الثورة، ممثلاً في إنجلترا التي رأت فرنسا تحذو حذوها في ترويض الملكية. أما فردريك إمبراطور النمسا وشقيق ماري أنطوانيت فعلى الرغم من ضجره لما حدث لأخته وشقيقها فلم يكن على استعداد لأن يذهب على محاربة فرنسا، وأقصى ما فعله محاولة تصفية خلافاته مع بروسيا من أجل الضغط

السياسي على الثوار لتخفيف العبء عن أخته وزوجها. إلا أن الثوار رأوا في فردريك عدوا للثورة وفي ملك بروسيا عدوا آخر يأوي الأمراء المعارضين للثورة.

تحمس بعض أعضاء الوزارة الجدد لحرب خارجية علهم يجدون فيها عونا للإطاحة بالملكية، تحالف الإمبراطور فردريك مع بروسيا للضغط على الثوار لإعادة نفوذ صهره المسلوب، فاعتبرت الوزارة الجديدة ذلك بمثابة إعلان حلاب من جانب النمسا، فأعدوا العدة لخوض حرب حددوا ميدانها الأراضي المنخفضة (بلجيكا) التابعة للنمسا آنذاك، ولم يثنهم عن حملتهم على بلجيكا موت الإمبراطور فردريك المفاجئ في أول مارس ١٧٩٢، فانضمت بروسيا إلى النمسا، فيما وقفت إنجلترا على الحياد.فشلت الحملة الفرنسية في بلجيكا فلا ذريعاً وتراجعت إلى الحدود، ويبدو أنه كان فشلا مقصودا؛ فسرعان ما أشارت أصابع الاتهام بالتآمر والخيانة إلى الملك، فاقتحم قصر التوليري جمهرة من الغوغاء، بعد أن تغلبوا على الحراسة الواهية، وأهانوا الملك واتهموه بالخيانة قبل أن يتمكن الحرس الوطني من إخراجهم، تابعت القوات المتحالفة زحفها نحو الأراضي الفرنسية، فانتشر الهرج والمرج داخل فرنسا، ورفعت حالة الاستعداد داخل فرنسا على القصوى، فرفعت العلام السوداء على دار البلدية في آخر يوليو ١٧٩٢، وزادت شكوك الثوار في الملك، الذي كان لديه إحساس قوي بما يدبر له. وفي صباح ١٠ أغسطس شعر الملك بتخاذل الحرس الوطني وان المؤامرة تحوم حول سور القصر، فترك القصر مع أسرته واحتموا بالجمعية التشريعية، وبالفعل وقع الهجوم على القصر ثم توجه المقتحمون إلى الجمعية يطالبون بخلع الملك وإعلان الجمهورية، فقررت الجمعية وقف الملك عن ممارسة سلطاته وانتخاب جمعية جديدة تسمى "المؤتمر الوطني" ولم يبق للجمهورية سوى الإعلان الرسمي، ولما سمع لافاييت نبأ سقوط الملك ترك القوات العسكرية وفر إلى بروسيا.

مع تقدم القوات المتحالفة سارت حمى الشك في وجود خونة في صفوف الشعب، فاتخذ وزير العدل قرارا بإطلاق حملة تفتيش عن الخونة؛ فامتلأت السجون وعقدت المحاكم الجماعية، فمن يثبت براءته يعاد إلى السجن، ومن يثبت تورطه يرحل إلى سجن آخر، وفي الطريق تخرج عصابات- أعدت خصيصا لهذا الغرض- تنقض عليهم فتقتلهم، ويصعب إحصاء عدد القتلى في تلك المذابح التي عرفت بمذابح سبتمبر ١٧٩٢م. كان جيوش الحلفاء قاب قوسين أو أدنى من باريس، ولم ينقذها سوى خلاف دب بين المتحالفين حول بولندا، كما اختلفا على توقيت الانقضاض على باريس؛ فكان فردريك وليم البروسي يؤثر التأني فيما تعجل إمبراطور النمسا في محاولة لإنقاذ ملك فرنسا وزوجته.

أحس الثوار بالخطر الخارجي فسرعان ما تشكلت الجمعية الوطنية، وعلى الرغم من أن المعتدلون كانوا يشكلون الغالبية العظمى (٦٠٠عضو مقابل ١٢٠ من الجيروند و٥٠ من اليعاقبة المتشددين) إلا أنهم في أول مهام الجمعية اتخذوا قرارا بالإجماع في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ بإلغاء الملكية وإعلان قيام الجمهورية، وكانت الخطوة التالية مباشرة هي محاكمة الملك لويس السادس عشر بتهمة التآمر على الثورة والخيانة، وتم قتله بالمقصلة في ميدان لويس الخامس عشر الذي تحول إلى ميدان الجمهورية، في ٢١ يناير ١٧٩٣م.

وقع الثوار في خطأ فادح بقتل الملك فقانون ١٧٩١ الذي وضعته الثورة يبيح لهم عزل الملك لقاء الخيانة، إن ثبتت، لكنه لم يبح القتل، ثم إن إعلان الجمهورية وقتل الملك في تلك الفترة العصيبة وضع إنجلترا المحايدة ومعظم الدول الأوربية المحيطة بأوربا في سلة الحلفاء بشكل مباشر، وغدا على الثوار الجدد قليلي الخبرة مجابهة حرب أوربية عامة، فالنظم الملكية كلها تخشى انتقال عدوى الثورة إليها.

لم يكن قتل الملك هو أولى الخطوات على طريق استعداء الدول المجاورة، وإنما بدأ الأمر عندما تمكن الجيش الفرنسي من السيطرة على بروكسيل في ١٩ نوفمبر، فأعلن قادة فرنسا الجدد أنهم سيقدمون العون لجميع الشعوب الراغبة في استرداد حريتها، وهذا إعلان صريح عن مبدأ تصدير الثورة، والإعلان بمثابة دعوة مباشرة للشعوب المجاورة أن تثور على حكامها، لذا ففور الإعلان عن مقتل لويس السادس عشر طردت إنجلترا السفير الفرنسي لديها وأعلنت الحرب عليها. وانضمت هولندا وأسبانيا للحلفاء، وثمة خطأ ثالث وقعت فيه القيادة الفرنسية باستعدائها الشعب البلجيكي الذي أبدى تعاطفا مع الثوار، وذلك بإعلانهم ضم بلجيكا رسميا إلى فرنسا. وبدأت سحب الدمار تظلل فرنسا بانتصار النمسا على الجيش الفرنسي في مارس ١٧٩٣، وزاد الطين بله تخابر ديموريه قائد الجيش الفرنسي مع العدو، لعدم رضاه عن قرارات رجال الثورة، وحاول إعادة الملكية مرة أخرى لكن جيشه لم يتعاطف معه، فخشي من بطش رجال الثورة ففر هاربا إلى النمسا في ٥ إبريل ١٧٩٣م. وتعد محاولة ديموريه الثانية في صفوف قادة الجيش بعد لافاييت، فغدا الخوف من خيانة قادة الجيش هماً يؤرق رجال الثورة.

وأمام ضغوط الحرب وظهور اضطرابات داخلية قام المؤتمر الوطني بعدة إجراءات لتعزيز المركزية وتفادي عدم خبرة الوزراء الجدد؛ فشكل في آخر مارس ١٧٩٣محكمة الثورة للنظر في أمر المتهمين بمناهضة الثورة، وتنقية الأجواء الداخلية، عضدها بإصدار قانون المشبوهين الذي يبيح الاعتقال دون دليل، وفي ٦ إبريل عينت "لجنة الأمن العام" من تسعة أعضاء زادت على اثني عشر عضواً، وأعطتها سلطات واسعة في الشأنين الداخلي والخارجي، وأمدتها بمصروفات سرية باهظة، لتحكم فرنسا لمدة عامين من وراء ستار؛ فكان من حقها إلغاء القرارات الوزارية التي تراها غير مناسبة لوضع فرنسا. واعتمد المؤتمر نظام المفوضين لزيارة كافة أقاليم فرنسا بهدف تثبيت الإدارة والتعبئة العامة للحرب. كان معظم رجال لجنة الأمن العام من اليعاقبة المتشددين، وأشهرهم دانتون الذي لعب دورا بارزا في إسقاط الملك وإعدامه، فاصطدم الجيروند مع لجنة الأمن ورفضوا الانصياع لها، فوقع أول صراع بين الجمهوريين، وهو الصراع الذي أوصل جماعات صغيرة إلى الحكم، فمكنت شخصية مثل نابليون من الوصول على السلطة. وبلغ عصر الإرهاب الذي بدأ بمذابح سبتمبر ذروته بتخوين الجيروند وتحويلهم إلى محاكم الثورة ومنها إلى المقصلة.

كانت لجنة الأمن العام مسئولة أمام المؤتمر الوطني في البداية، فتقدم له تقارير دورية عن أعمالها، لكن المؤتمر الوطني أخذ يضعف ويتلاشى فيما تعاظم دور اللجنة فأمسك دانتون بمقاليد الأمور، وعندما قوي نفوذ الخطيب العقوبي المفوه روبسبيير فسيطر على اللجنة، انصرف دانتون إلى تجنيد الأهالي وتجهيز الجيش للمهام الخارجية. واستمرت محكمة الثورة تحصد في أهالي فرنسا بالمقصلة يعضدها قانون المشبوهين الذي أقر في سبتمبر ١٧٩٣،

وكانت أهم ضحاياها الملكة ماري أنطوانيت نفسها، عدوة الثورة الأولى في رأي الثوار بالطبع، فألحقتها المقصلة بزوجها في أكتوبر ١٧٩٣، كما أعدم فيليب دوق أورليان مع أنه آزر الثورة ووافق على قتل الملك، لكنه كانت له – في رأي أعضاء الثورة– أطماع في إعادة الملكية ليكون هو الملك، فأدين بعلاقة مع القائد العسكري الهارب ديموريه وأعدم بالمقصلة أيضاً، كما أعدم بعض القادة العسكريين، وأعدم عدد كبير من الجيروند ومن أبرزهم مدام رولان، وفي ١٢ نوفمبر تم إعدام عالم الفلك باتي أول رئيس للجمعية الوطنية، لإصداره أمرا بإطلاق النار على الجمع الذي طالب بالجمهورية في ١٧٩١م.

أكلت الثورة الفرنسية أبناءها أكثر من مرة وغدا الخوف مسيطرا على كل قائد سياسي بان رفيقه إن تمكن منه سيزفه إلى المقصلة، فإذا كان اليعاقبة قد تخلصوا من رفقائهم الجيروند بالطريقة التي أسلفناها لخلاف فكري أو عقائدي، فإن الخلاف بين الإخوة اليعاقبة قد انتهى بهم إلى المصير ذاته، فتحالف دانتون مع روبسبيير للتخلص من هيبر وأمصاره، وما لبث روبسبيير أن انقلب على دانتون وأتباعه فحاكمهم وقطع رؤوسهم في مطلع إبريل ١٧٩٤، لم ينته عهد الإرهاب عند هذا الحد، فصدر في يونيو ١٧٩٤ قانون بتعديل إجراءات محكمة الثورة دعا المواطنين على الوشاية بالخونة، ورفعت الحصانة عن أعضاء المؤتمر الوطني، ليبلغ عدد الساسة الذين قتلوا في الفترة من ١٠ يونيو إلى ٢٧ يوليو – تاريخ سقوط روبسبيير نفسه– حوالي ١٣٧٦ ضحية، ولم ينته عهد الإرهاب إلا باغتيال روبسبيير ذاته في التاريخ المذكور، وسقط اتباعه في يد أعدائهم، فقد سئم الناس عهد الإرهاب، لاسيما مع زوال الخطر الخارجي، فاعيد تنظيم محكمة الثورة لتنتهي فترة الطوارئ، واستعاد المؤتمر سلطته من جديد، ليقبض على زمام الأمر في باريس.

وعودة مرة أخرى للشأن الخارجي، فقد ظن الجميع أن أيام الثورة في فرنسا غدت محدودة، بعد أن أضحت محصورة بين مطرقة الحلفاء وسندان التمرد والفتن الداخلية، لكن الواقع اثبت عكس ذلك، فتمكنت لجنة الأمن العام ومحكمة الثورة من تنقية الجبهة الداخلية بإسالة مزيد من الدماء على نحو ما أسلفنا، وعلى الصعيد الخارجي ساهم الحلفاء في انتصار فرنسا، فإذا كان العداء للثورة قد جمع بين الحلفاء، فالميدان لم يشهد توحدا لقياداتهم، فكانوا جسدا برؤوس متعددة كلٌ تحكمه مصالحه، كما ألقت مسألة بولندا بظلالها على العلاقات بين روسيا وبروسيا والنمسا، فقد ساءهم جميعاً أن تنهض ملكية قوية في بولندا، فأجمعوا رأيهم على تقسيمها ثانية في مطلع سنة ١٧٩٣، بين روسيا وبروسيا، وتعويض النمسا بأراض فرنسية عند القضاء على ثورتها، ولما أصبح ذلك صعبا دب الخلاف بين المقتسمين.

سارت المعارك مع الحلفاء في صالح فرنسا، فتمكنت في سبتمبر ١٧٩٣ منفك الحصار عن مدينة دنكرك، وفي أكتوبر من العام نفسه أحرز جوردان نصرا جديدا مكن قواته من عبور الراين، وتمكن في يونيو ١٧٩٤ من هزيمة جيش للحلفاء عند فليري، وفشل الحلفاء في استرداد بلجيكا من يد فرنسا. وفي يناير ١٤٩٥ تمكن الجيش الفرنسي من دخول أمستردام، واستولى على الأسطول الهولندي المتعطل بسبب الجليد. أظهر البروسيون رغبة في الانسحاب من الحرب بسبب مسألة بولندا، ثم انسحبت النمسا.

حققت انجلترا نصرا بحريا على الأسطول الفرنسي في أول يونيو ١٧٩٤ في بحر المانش، لكنها فشلت في أن تعززه بنصر بري بالتحالف مع المهاجرين الفرنسيين. وفي عام ١٧٩٥ عقدت معاهدة سلام في بازل بسويسرا بين فرنسا وبروسيا بشروط مالت لصالح فرنسا بالطبع؛ فأضافت إليها بعض أراضي ألمانيا مقابل تعهد فرنسا بعدم الاعتداء، ثم تبعه صلح بين فرنسا وهولندا في العام نفسه، كما انسحبت أسبانيا بعد أن تنازلت عن جزيرة دومينجو لفرنسا. وإذا كانت إنجلترا قد فشلت في تحقيق نصر بري على فرنسا، إلا أنها بقيت تمثل خطرا بحريا على مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار.

قررت حكومة الإدارة توجيه ضربة قوية إلى قلب النمسا فوجهت جل قواتها إلى فينا بقيادة الجنرالين مورد وجوردان عن طريق الدانوب، وتقرر أن يقوم جيش ثانوي بمناوشات في الممتلكات النمساوية في إيطاليا بقيادة نابليون، الـــذي حقق نصراً مؤزراً سريعاً، قبل أن يتمكن الجيش الرئيسي من التوغل في الأراضي الألمانية ، ومع تحرج موقـــف الطرفين وجه بونابرت نظر أرشيدوق النمسا إلى طلب الصلح،وبالفعل تم الصلح وتأكد في اتفاق أكتوبر ١٧٩٧م فـــي كامبو، تضمن الصلح بنوداً علنيه وأخي سرية حيث تم التنازل لفرنسا عن الأراضي البلجيكية، وتقرر إقامة جمهورية في شمال إيطاليا وأعطيت الجزر الأيونية لفرنسا، واحتفظت النمسا بالبندقية.

وإذا كانت فرنسا قد نجحت في إخراج النمسا من الميدان فقد وقفت شبه عاجزة أمام بريطانيا نظراً لتفوقهـــا البحـــري وتوسع مستعمراتها وأني للأسد أن يتغلب علي القرش وعندما حاول الأسد الفرنسي أن ينازل القرش بحملة علي مصر تفتح طريقاً جديداً أسرع إلى الهند حيث ممتلكات التاج البريطاني، جاءت ضربة القرش البريطاني للأسطول الفرنسي علي صفحة خليج أبي قير قوية مدوية أوقفت التفكير الفرنسي في هذا المجال.

المصادر والمراجع

- آمال السبكي، **أوربا في القرن التاسع عشر، فرنسا في مئة عام** (عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٥)

- جرانت وتمبرلي، **أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩- ١٩٥٠**، ترجمة بهاء فهمي (مؤسسة سجل العرب، ٢٠٠١)

- جلال يحي، **التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوربا على العالم**، أربعة أجزاء (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ت)

- جمال المسدي ويونان لبيب، **مصر والحرب العالمية الثانية** (مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٨٧)

- حسن جلال، **الثورة الفرنسية** (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٧)

- عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر** (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧)

- عبد العظيم رمضان، **تاريخ أوربا والعالم في الحديث من ظهور البرجوازية حتى الحرب الباردة** (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧) جـ١، ٢، و٣

- عمر عبد العزيز، **التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث** (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠)

- عمر عبد العزيز، **أوربا ١٨١٥- ١٩١٩** (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢)

- فرانكلين باومر، **الفكر الأوربي الحديث الاتصال والتغيير في الأفكار، ١٦٠٠- ١٩٥٠**، أربعة أجزاء، ترجمة أحمد محمود (الألف كتاب الثاني، ٨١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩)

- محمد حرب، **البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة** (المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٩٩٣)

- محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس، **أوربا في العصور الحديثة** (الأنجلو المصري، القاهرة، ١٩٦١)

- محمد فؤاد شكري، **الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٦- ١٨٤٨** (دار الفكر العربي، ١٩٥٨)

- هربرت فشر، **أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية**، ترجمة وديع الضبع (دار المعارف، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١

- يونان لبيب ورؤوف عباس، **تاريخ أوربا في عصر الإمبريالية** (دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٢)

- يونان لبيب ورؤوف عباس، **تاريخ أوربا في عصر الرأسمالية** (دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٢)

فهرس الموضوعات

	- أسباب تفجر الأزمة - أدوار الحرب - معاهدة وستفاليا ١٦٤٨	
الخامس	أوربا في القرن الثامن عشر - خريطة أوربا في مطلع القرن الثامن عشر - حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠- ١٧٤٨ - حرب السنوات السبع ١٧٥٦- ١٧٦٣	
السادس	عصر الثورة الفرنسية - أســباب الثــورة: - صحوة العامة: - الثورة الفرنسية	
السابع	عصر نابليون بونابرت - الطريق إلى السلطة: - نابليون إمبراطوراً - مآثر نابليون وسياسته الداخلية - حروب نابليون - مؤتمر فينا ١٨١٥م	
الثامن	أوربا في القرن التاسع عشر (١٨١٥- ١٨٧٨) - سياسة التحالفات والمؤتمرات - فرنسا من ١٨١٥- ١٨٤٨م - ثورات عام ١٨٣٠م في أوربا - مشروعات الوحدة في أوربا	
-	الخاتمة	
-	المصادر والمراجع	